وزارة الاعلام
المركز الفولكلوري

طلال سالم الحديثي

من التراث الشعبي في العراق

المكتبة الفولكلورية
٣

تصميم الغلاف والخطوط ـ قسم التصميم في وزارة الاعلام
متابعة واشراف ـ تقي مطشر

دار الحرية للطباعة
(مطبعة الجمهورية)
بغداد ١٩٧٢

الإهداء

الى الفولكلوريين العراقيين
تحية لمحاولاتهم الرائدة
في خدمة التراث الشعبي العراقي

طلال

المقدمة

يحوي المجتمع الانساني ، حتى في شكله الحضاري المتقدم ، القديم والجديد جنبا الى جنب في داخل كيانه ، فنجد الطائرات النفاثة تمرق فوق الاماكن المقدسة ، ونجد انسانا ما يركب الطائرات الحديثة أو حتى يقوم بقيادتها أيضا ومع ذلك فانه لا يزال يعتقد بالاساطير ويستلذ بسماع الحكايات الشعبية ويردد الاغاني الشعبية ويطرب لها ، ان هذا التناقض المستمر بين التطور الحضاري المتقدم والتمسك بالتقاليد والعادات الشعبية يعطينا نموذجا حيا لما لهذه التقاليد من أثر عميق في نفوس الافراد حتى في أشد البلدان تحضرا وتقدما حيث اخضعت مثل هذه التقاليد من أساسها الى عملية تقنين لا ترحم .

وعلى هذا الاساس نرى ان غرض علم الفولكلور وواجباته الاولية في جمع وتصنيف المنجزات الانسانية التي لا غنى عنها لاي علم ، تاريخيا كان أم طبيعيا هو : اعادة بناء التاريخ الروحي للانسان ، لا كما عرضته مؤلفات مشاهير الشعراء والمفكرين ، بل كما قدمته أعمال الشعب العفوية .

ومن هنا برزت اهمية جمع الاغاني والحكايات والامثال والشعر وكل ما يتعلق بالادب الشعبي من نصوص شفاهية ويشمل هـــذا أيضا العادات والتقاليد الموروثة ٠

وكان ان ساهم الاخ الصديق طلال سالم الحديثي في هـــذا المجال وكتب لنا هذه الدراسة وجمع لنا فيها بعضــا من هـــذا الموروث الشعبي الشــفاهي :

حوث المقالتين الاوليتين لهذه الدراسة موضـــوعا واحدا « نصوص مجهولة من الغناء الشعبي العراقي » ، اورد فيهما الكاتب بعض النصــوص (المجهولة) وقال في مقدمة مقالته الاولى من انه وصف هذه الاغاني بالمجهولية ينعقد على كونها مجهولة المؤلف ومجهولة المناسبة التي قيلت فيها والزمن الذي لحنت وانشدت فيه ٠

ان صفة المجهولية التي اطلقت على هذه الاغاني تعطي لنا انطباعا مــن انها مجهولة لدى الناس ولا يعرف عنها احد شيئا سوى الكاتب نفسه الذي اكتشفها وهذا لا ينطبق على واقع الحال اذ ان هذه الاغاني معروفة لدى سكان منطقة الكاتب على الاقل ، أما ان تنعقد هذه المجهوليــة على كونها مجهولة المؤلف ومجهولة المناسبة والخ ٠٠٠ فهذه الصفة للمجهولية ملازمة للاغنية الشعبية وكما نعلم ان صفة الشعبية (اي الفولكلورية) لاغنية او حكاية ما تطلق على كون هذه أو تلك مجهولة القائل أو المؤلف او الملحن وهــذه الصفة الشرطية للمجهولية اعطت الصفة الشعبية لاي منهما ٠

على ان هذا لا يقلل من روعة النصوص التي أوردها المؤلف في سياق مقالته ، كما ويلاحظ ان المقالتين هما عن موضوع واحد وكان من المستحسن أن تدمج في بحث واحد ٠

وعرضت المقالة الثالثة للتشبيه في الاغنية الشــعبية والحــق يقال ان النماذج التي اختارها الكاتب كانت موفقة جدا ٠

لا توجعين الخشــــف بالله يا دگاگــه

ويروب روب الزبد خــوفي على ســـاگه

فالخشف هنا هو المرأة والدگاگة هي التي تدق الوشم على الســـاق البضة التي تشبه الزبدة بنضارتها ونعومتها وبياضها وخوفا من ان تذوب الزبدة يرجو العاشق الولهان ان تترفق بدق الوشم عليها ، فما أجمل الساق وما أروع التشبيه !!!

والحزن في الاغنية الشعبية هو موضوع المقالة التالية وما أكثر الحزن في اغانينا الشعبية ، فقد طغى على غيره من ابواب الشعر والغناء نظرا للحياة القاسية المؤلمة التي كان يعيشها الانسان الريفي ، وهذا النوع من الغناء يعطينا صورة واضحة للمجتمع الذي كان يعيش فيه الفرد العراقي بكل مآسيه الطبيعية وغير الطبيعية من كوارث ونكبات فكان ان طبعت شعره وغناءه بهذه الصورة المأساوية فكثرت فيه تعابير العزاء والحزن والالم والبؤس والتشاؤم .

واذ انتهينا من الاغاني كنصوص ونماذج ، ينتقل بنا المؤلف الى بعض القصص التي تكمن وراء بعض من هذه الاغاني ، وانا مع المؤلف في قوله من ان التحام القصة بالاغنية الشعبية يدل على وحدة التجربة وبالتالي افراغ هذه التجربة في قالب شعري غنائي ، ولم يفعل الشاعر الشعبي او المغني الشعبي هذا عن قصد مرسوم ، بل جاءت هذه الوحدة في التجربة والتعبير عنها شعرا أو غناءا بصورة عفوية ، مع التأكيد ما للاغنية من تأثير مباشر عميق في نفوس السامعين .

تأتي المقالة الاخرى لتعطينا دراسة في الامثال الشعبية العراقية ، على أن الدراسة هذه لامثالنا الشعبية جاءت مقتضبة جدا لا تتفق مع عنوان المقالة ، اذ ان الامر يتطلب ان يفرد له كتاب كامل وان يستوعب نماذج متعددة من أمثالنا ومن مختلف مناطق العراق ، على اننا يجب ان لا ننسى ان البحث كان اصلا مقالة منفردة وليس معدا لينشر في كتاب وكان الواجب على المؤلف ان يتوسع في الموضوع طالما أراد له ان يظهر في كتاب .

واتقاء الشر في المعتقد الشعبي مقالة اخرى عدد فيها المؤلف بعضا من الوسائل التي يلجأ اليها الانسان الشعبي لاتقاء ما قد يحيق به من شر .

وعالجت مقالة اخرى ادب النواح أو (العدودة) وهو ما تفوه به العدادة في مجالس العزاء وقد اختصت النساء بهذا النوع من أدب العزاء والنواح وهو بلا شك يدخل ضمن اطار الادب الشعبي لما يعبر به من عواطف وأحاسيس وانفعالات كما قال المؤلف في آخر مقالته .

وختم المؤلف كتابه بدراسة عن مصادر الثقافة الشعبية في الريف والبادية ، وكأنما أراد بهذا أن يقدم لنا بحثا شموليا لكافة الابواب التي طرقها وعالجها في كتابه وليدلنا على المصادر التي استقى منها الاديب الشعبي ثقافته والتي اعتبرها المؤلف المدرسة التي تثقف فيها وتخرج منها ، وكان الديوان وبالتالي العارفة هو الاساس لهذه الثقافة الشعبية ولهما التأثير الكبير في بناء شخصية الرجل الريفي والمساهم في تطويره وتنويره ، ولم يدلنا المؤلف عن المصادر التي تلقى منها المغني الشعبي او الشاعر الشعبي

ثقافته والذى لم ير الديوان في حياته ولم يلتق بالعارفة أبدا ليستمد منهعذه الثقافة والمعرفة ٠

وبعد هذا كله أود أن أبدي تقـديري واعجـابي بالطريقة السليمة الرصينة التي عالج بها المؤلف مواضيع كتابه والنماذج الجيدة التي اختارها لتعزيز بحوثه ، على ان الكاتب يؤاخذ على عدم اعادة قراءة مقالاته التينشرها في المجلات قبل ان يدرجها في كتابه ، ليعيد تنسيقها وليتلائم بعضه معالبعض اذ ان نشر مقالة في مجلة ما يختلف اختلافا كبيرا عن نشرها ضمن كتـاب المفروض فيه وحدة الموضوع وتناسق الاسلوب ٠

على اننا ما زلنا في بداية الطريق فى دراساتنا الفولكلورية وبحوثنا في الادب الشعبي ، والجهد الذي بذله الصديق طلال يستحق منا كل التقدير وبالتالي كل التشجيع وان ما أوردته من بعض الملاحظات ومن النقد لا يقلل من أهمية هذه البحوث ، كما سبق ان بينت للاخ طلال عندما طلب منـي كتابة مقدمة كتابه هذا ، فكان ان تقبلها بكل ود مدللا على طيبة نفسهوحسن خلقه ، هاتان الصفتان اللتان يتميز بهما الاخ طلال الى جانب صفاتهالمحمودة الاخرى من محبة للعلم واستزادة من المعرفة ٠

راجيا لكتابه ما يستحقه من الانتشار ٠

المركز الفولكلوري ــ بغداد **لطفي الخوري**

فى ١ــ٢ــ١٩٧٢

الفصل الأول

في الأغنية الشعبية العراقية

نصوص مجهولة من الغناء الشعبي العراقي

(١)

كنت قد عثرت على مجموعة من النصوص لاغاني شعبية عراقية وانا أبحث عن صور تتضح بواسطتها ملامح الحياة الشعبية العراقية المجهولة • وقد دونت بعض ما عثرت عليه وصح الاتفاق على ذيوعه بين العـامة في فترة طويلة من الزمن في كتابي الموسوم بـ (صور من حياتنا الشعبية) •

وحينما عدت الى البحث في مجالي الحياة الشعبية مرة أخرى عثرت على نصوص جديدة وجديرة بالنشر والتسـجيل حتى لاتبقى ركاما ينوء تحت وطأة الاغفال • ولعل من الصواب أن نتـوه الى ان وصفـنا هذه الاغاني بـ (المجهولية) ينعقد على كونها مجهولة المؤلف ومجهولة المناسبة التي قيلت فيها والزمن الذي لحنت وانشدت فيه •

والاغنية الشعبية موضوع هذا الحديث عكست احاسيس شتى وصورت جوانب مختلفة فيها عذاب المحبين واحلامهم وصباباتهم وفيها تشاؤم الذين لم تمنحهم الحياة سوى الشقاء والالم والعذاب • فبينما نسمع اغنية (عالميمر وعالميمر) الاغنية الراقصة الحالمة يتناهى الى سمعنا غناء البائسة المنخذلة

اريد اغني وادير غنـــاي بالمكلـــوب
والشوك يحمل رطب والبربنة خرنوب[1]

وعلى الرغم من هذا تظل الاغنية الشعبية الترنيمة التي ترتلها الشفاه حينما تثار دواعي الفرح والمسرة والطمأنينة وهي أحاسيس بسيطة أصيلة لنفوس طابت وغنت ٠

فمن الاغاني الذائعة ذات اللحن السريع والتي تشترك في انشادهـا مجموعة كبيرة من النساء والرجال هذه الاغنية :

گلبي جــدر ويفـــور احـه	**فــورچ يـــا دلّــه**[2]
راس النهد مكســور احــه	**ماضـــي محلّـــه**[3]
گلبي جدر ويفور ٠٠ احـه	**فـــــورچ يطـــاوه**[4]
بين الســمر والبيض احــه	**شـدّت عـــداوه**[5]
يا معبّر الشختور ٠٠ احــه	**ديـره علغـــيره**[6]
مثـل الرمـد بالعـين احـه	**عشـگ الزغـــيره**[7]
لرگه عـلى العلــوين احـه	**واومـــي بزبونـي**[8]
ابشــرك يا گليـب احـه	**جـــو يزفـــوني**[9]

واذا كان هذا النص ينشد على لسان المحب فان حبيبته أيضا تردعليه مقتفية خطاه في الاغنية فتقول :

لرگـه على العلـــوين احـه	**واومـــي بعبـــاتي**
ليبشـرك يـا گليـب احـه	**جتّـك مشتّـــايه**[10]
كلهم عگلهـم ســود احـه	**مجـفي معرفـــــه**[11]
حتى النخـــل حزنان احـه	**يبچي علَ ولفــه**

---

(١) البربنة : نوع من النخيل والخرنوب ثمار الشوك ٠ تثمر البربنة رطبا جنيا طيب المذاق ٠ اما الخرنوب فلا يؤكل الا اذا جف وفائدته قليلة وقد يعلف للحيوان ٠

(٢) احه : صوت للتالم ٠ فورچ يا دله : اي ان قلبه يفور من العشق كما تفور دلة القهوة ٠

(٣) راس النهد : حلمته ٠ ماضي محله : تقول العامة : الجرح ماض بمعنى عميق ٠

(٤) الطاوة : المقلاة ٠

(٥) شدّت : نشبت ٠

(٦) الشختور : من وسائط النقل والعبور النهرية ٠ علغيره : على آخرها ٠

(٧) عشگ الزغيرة : عشق الفتاة الصغيرة ٠

(٨) ارگه : ارتقي ٠ العلوين : ما ارتفع من الارض ٠ اومي : اومىء ٠ الزبون : من ملبوسات المراة التي تلبسها فوق الشلشاشة ٠

(٩) جو : جاءوا ٠

(١٠) جتك ٠ جاءت اليك ٠ مشاية : جماعة منالرجال والنساء التيتذهب لخطبةالبنت٠

(١١) مجفي : اجفا الرجل : ادار ظهره بالنسبة الى المتكلم ٠

ومن (الموليّة) التي جاراها الكثيرون هذه الاغنية التي تصور تفاني الحبيب المتيم الذي لا يصده بعد عن تحقيق ما تطلبه حبيبته وتتمناه حتى لكأننا نلتقي بأبطال كثير من الاساطير الشعبية التي تبالغ في تفاني الاحبة وقطعهم الفيافي والقفار متسربلين بالظلام كي ينالوا خاتما أو قلادة للحبيبة ذات الدلال والحسن :

يا عين موليتين يا عين موليّه
جسر الحديد انگطع من دوس رجليه
لروح لابن السبت واقرا بقرآنه[١٢]
واجيب شدة ورد وازرع ابستانه
لفيتها بالحضن وتگول برادنه
امنين اجاچ البرد عيني يالبنيه
لروح لابن السبت واشري هباري ثنين[١٣]
وحده لشگره ام زلف وحده لسوده العين
اكتب يا ملا حسن واسحر يا ملا حسين[١٤]
ام الزميم ذهب مرجوعها ليّه[١٥]

ويتجاوز هذا التفاني حده حتى يدفع بالمتيم العاشق الى ان يهجر والديه ليلتحق بمالكة فؤاده قرينة الغزال حسنا ورشاقة . ويكفي ان نقرأ معا أغنية (عل الماني) التي تصور احاسيس مكتوية ارهقها الحب والسهاد :

الماني توني شفته	**من نگل اجدامه عرفته[١٦]**
امي وابوي عفته	**لحگت رويم الغزلاني[١٧]**
الماني جاني توه	**اثگل من حمل الفوه[١٨]**
گولوا للعاشگ توّه	**گلبه يلهب نيراني[١٩]**
وردت عل البير وگفت	**شويجي عل البطن لفت[٢٠]**
يمصخم لا تتلفت	**خذها ابن عمها الداني[٢١]**

---

(١٢) ابن السبت : كنية التاجر اليهودي .
(١٣) اشري : اشتري . هباري : جمع هبرية وهي الوشاح وتصنع عادة من الحرير .
(١٤) ملا حسن وملا حسين : كاتب العقد وقارىء الحظوظ .
(١٥) ام الزميم : صاحبة الزمام . والزمام من حلي الانف عند المرأة .
(١٦) كنى عن محبوبته بالماني : من نگل اجدامه عرفته : عرفته من وقع اقدامه .
(١٧) لقد تركت امي وابي ولحقت بحبيبتي التى تشبه ريم الغزال .
(١٨) جاءت حبيبتي تواً ثم استانفت وصفها فقال : انها ثقيلة واثقل من حمل الشوك .
(١٩) لقد عشقها حالما رآها ولهذا فان قلبه يلهب نارا من شدة حبه .
(٢٠) جاءت الى البير تملء جرتها ثم ادارت ظهرها وتحزمت بالشويجي وهو للحزام .
(٢١) أيها الحبيب التعس لا تظل تتلفت من الحيرة فقد تزوجها ابن عمها القريب .

والاغنية الشعبية تمتاز ببساطة التعبير وعفوية الصور والتشابيه وخفة اللحن • وهي تميل الى اتخاذ الاشياء المحسوسة مادة لها • ولنقدم نصا آخر يتضح فيه قولنا هذا :

لگعدلچ عل البير گعود	**حليوه يم عيون السود**[٢٢]
لصعد واگطعلچ عنگود	**خلالي من البستاني**[٢٣]
شفته يمشي عل الحدود	**مثل الوردة براس العود**[٢٤]
السمر صاحن فرهود	**وآني بحظ ام عران**[٢٥]
ياهل تمشي گبلنه	**فطنتنه باهلنه**[٢٦]
زلفك مرشوش بحنه	**وفوگ الحنه ريحان**[٢٧]

فقد أوضح لنا في بداية الاغنية كيف انه عمد الى البئر الذي تستقي منه محبوبته كي ينتظرها وهو يدري انها لابد آتية وهو في سبيل ذلك سوف يقعد ويقعد طويلا حتى تأتي ذات الحسن والعيون السود • وسوف يصعد الى النخلة التي في البستان المجاورة ويقطع لها عنقودا تتلهى به • ثم يعود فيصفها قبل ان تقترب منه ويقول : حينما رأيتها تخطر مقتربة مني كانت تشبه الوردة التي تتوج غصنها • فمحظيتي هي ذات العران التي انتقيتها من صويحباتها السمر • وان زلفيا مصبوغ بالحنة والريحان •

وقبل ان اختم مقالي هذا عن الاغنية الشعبية أود أن أشير الى أن بعض هذه الاغاني ينتشر في مناطق كثيرة من العراق لكن مع اختلاف في بعض الكلمات أو النصوص ولهذا يكون من الاجدر ان تعمد الاقلام المهتمة بالتراث الشعبي الى رصد النصوص الشعبية المختلفة اغنية كانت أو شعرا أو أمثالا حتى تهيأها للبحث والدراسة • وهذا ما وضعناه نصب أعيننا وهمتنا وسنعود الى الموضوع مرة أخرى •

---

(٢٢) سوف اقعد لانتظرك على البئر ايتها الحلوة يا صاحبة العيون السوداء •

(٢٣) وسوف اصعد واقطف لك عنقودا من الخلال • والخلال هو التمر قبل نضوجه •

(٢٤) الحد ما ارتفع من الارض ليفصل بين الاراضي المزروعة • العود : الغصن •

(٢٥) فرهود : تعطي معنى السلب والنهب • ام عران : صاحبة العران ، والعران من حلي الأنف عند المرأة •

(٢٦) ياهل : يا ايها • گبلنه : قبلنا • فطنتنه : ذكرتنا •

(٢٧) مرشوش : لا وجه لاستعمال الكلمة لان الرش معناه النثر • والشعر عندما يحنى فانه يدهن من جلوره بعجين الحنة • والريحان نوع من الطيب •

نصوص مجهولة من الغناء الشعبي العراقي

(٢)

كنت قد نشرت في العدد الاول من مجلة العراق الصادر في مايس من عام (١٩٦٨) مقالا بعنوان (نصوص مجهولة من الغناء الشعبي العراقي) وكنت قد ألمحت في المقال المذكور الى التسمية التي جئت بها عنوانا لمقالي ذاك فقلت (ولعل من الصواب ان ننوه الى ان وصفنا هذه الاغاني بـ(المجهولة) ينعقد على كونها مجهولة المؤلف ومجهولة المناسبة التي قيلت فيها والزمن الذي لحنت وانشدت فيه) ٠ وشغلتني مكابدة الحياة عن الانصراف الى هذا اللون من البحث فلم تنشر للمقال المذكور صلة متممة ٠ ونحن نعلم أيةأهمية للاغنية الشعبية في مجال الدراسة الفـــولكلورية اذ منها تستـــمد ملامح الحياة الاجتماعية لتضاف الى الروافد الاخرى التي تعود الى منبع عظيـــم واحد ـ منبع التراث الشعبي ـ من مستقى الفكر الانساني الخالد ٠والاغنية هي أكثر من مجرد لحظات تنقلنا على أجنحة الشوق والسرور والبهجة الى عوالم اكثر انسجاما مع نفوسنا من العالم الذي نعيشه ٠ الاغنية الناجحة هي ضرب من الوجد الصوفي الذي تتصاعد معه الروح الى آفاق هي بالتحديد آفاق صبواتنا وتطلعاتنا واحلامنا ٠ الاغنية الناجحة هي التي تنفذوبشفافية الفرح الانساني السرمدي لتوقظ أو لتهز كل أوتار الحياة الحقيقية التـــي

نطمح اليها . هي شلال العواطف وروافد الحب في نفس الانسان لذلك صار لها هذا الالق السرمدي والشعاع الابدي . هي فسحة النفس وانطلاقها من عقال الشوائب . وهي ترانيم الشجي والخلي ما دبت حياة على وجه بسيطة.

والاغنية الشعبية موضوع هذا المقال هي ينبوع الفرح الصافي عند انساننا . هي ترانيمه في الريف وفي الصحراء . هي أحاسيسه تجاه حياة لم تعقدها آلة أو مدنية . لقد كان هذا الانسان في انشداده الى الحياة يحلم بعذوبة يجب ان تسيل من نهر الحبيبة . ويحلم بحلم يشده الى أشيائه ، الى أرضه وساقيته وقمحه .. الى أمه وأبيه . وكان من الطبيعي أن تكون لهذه الاشياء تلاوين في نفسه وطبيعي أيضا ان ترتسم هذه التلاوين بملامحها على الاغنية لانها الصدى الارحب لاشيائه المتشابكة ، فكيف لا تهز مثل هذه الاغنية أغصان كل شجرة عاشقة جذورها الحنين وجذورها الحب متوغلة في أعماق ساقية الحياة . وما علينا اذا ما سمعنا شنشنة الحالمين بزهور البلاستيك التي تريد النيل من الاغنية الشعبية الصميمة الاصيلة ألق نفوسنا . فطين جذورنا هو طين الارض المباركة التي عليها معاشنا ومماتنا. وألقها ألق شقائق النعمان . ونفحها نفح زهر الليمون وطلع النخيل وأريجها ماء الحياة ورواء البقاء . لذلك كان في النفوس للاغنية الشعبية انشداد وتوق وتعلق . والاغنية الشعبية التي أنقلها للقارىء هي جزء من أغنية (المولية) الشهيرة . وأقول الجزء لانني اعتبر ان كل النماذج المنظومة على نمط المولية هي بمثابة أجزاء تترابط في الوقع والسمع . ولعل من الواضح ان هذا النمط الشائع من الغناء قد وجد له ناظمين في بقاع مختلفة لذلك وجدنا نماذج كثيرة لهذا اللون من الغناء . والنص الذي أضعه بين يدي القارىء نص شهير ويكاد ان يكون ارقى النماذج الشائعة .

النص : ـ

يا عـــين مـــوليتين وياعين موليّـــــه
فرفح گليبي عبـــالي المجبـــلة هيـّـــه(١)

البيـــض لو لبســـن هـــدوم البيض(٢)
مثل الگمر لو تشعشــــع بليالي الگيظ(٣)
يلســـمر لا تزعلن انتـــن اغات البيض(٤)
البيض ورد الكـــبر يزهـــي بلاميــــه(٥)

هلريمة الحـــدرت وردت بذاك الطـــار(٦)
الحيـــل مني رگد والعقـــل مني طـــار(٧)
السمرة عود كـــرنفل الشـــايلة العطار(٨)
والبيـــض لـــو وردن غـــزلان علميــه(٩)

اريـــام جني طبگك اريــــام جن ليفوگك(١٠)
كوبان ذب العصـــا لا تضرب الغرنوگك(١١)
يالصايغ ذب التراجي واشتغل بالطوگك(١٢)
خلي الشناشل تصـــل لنهد البنيه(١٣)

---

(١) فرفح : خفق من الحب والفرح . كليبي : قلبي . عبالي : ظني . المجبلة : المقبلة . هيه : هي .

(٢ ، ٣) البيض : اشارة الى النساء البيضاوات . هدوم : الملابس . الگمر : القمر . تشعشع : تلألأ واشرق نوره . الليالي البيض : الليالي المقمرة .

(٤) السمر : اشارة الى النساء السمراوات . اغات : من الكلمات المستعملة في العامية العراقية وهي هنا بمعنى سيدات .

(٥) الكبر : نبات صحراوي ذو ورد ابيض مشوب بصفرة . ميه : ماء .

(٦) هلريمة : هذه الريم (الغزال) شبه المخاطبـــة بالغزال لرشاقتها وجمالها . الحدرت : انحدرت او نزلت . الطار : الجهة .

(٧) الحيل : القوة . رگد : رقد وهي هنا بمعنى سلب أو ذهب .

(٨) السمرة : السمراء . الشايلة العطار : الذي يحمله العطار وهو البائع المتجول الذي يبيع الروائح والعطور والبهارات وغير ذلك من حاجيات متنوعة .

(٩) وردن : جئن للاستسقاء . علميه : على الماء .

(١٠) اريام : جمع ريم . جني : جئن . طبك : جئن . جن : جماعات . جن : جئن . ليفوك : فوق .

(١١) كوبان : اسم شخص . ذب : ارمي . الغرنوك : طائر جميل .

(١٢) التراجي : الاقراط . الطوك : الطوق من حلي الرقبة عند المرأة ، وهو عبارة عن قطعة فضية مستطيلة الشكل ومقوسة قليلا لتلائم الجبين ، تتدلى منها قطع صغيرة من الفضة على اشكال مختلفة . (لمزيد من التفصيلات عن الطوق وحلي المرأة راجع كتـابي صور من حياتنا الشعبية صفحة ـ ٤٦ ـ) .

هلريمة العنـــدكم تاكل بخنصـر عيش[١٤]
تكول يهـــل الهـــوى ببلادكم ماعيش[١٥]
لمن لـويت الزلف لفـــة عجايف ريش[١٦]
كالتلي هـد الزلف يـا بعـد راعيــه[١٧]

هلريمة العنـــدكم يحمـــود ما تضني[١٨]
ما ريد منهـــا ولد بس تكعـد بحضني[١٩]
البطن بطن الغـزال ابيض من الكطنـــي[٢٠]
أبيض من الخيــمة العلبيــك مرميه[٢١]

يا ريمـــتي حـدري يلشـــايلة الجـرة[٢٢]
عطشان مي الســـنا ما مر علي مـرة
يخوي يا جبـــرتي ما اريد ابو ضـــرة[٢٣]
أريد بيت وحدي تاشـــوف كيفيـــة[٢٤]

يا ريمتي حـدري يلشـــايلة الكـوتي[٢٥]
يمطـر عليـــج المطر ببيتنـــه فـوتي[٢٦]
والله لولا الحيـــا لاهبـــش الكـوتي[٢٧]

---

(١٣) الشناشل : القطع الفضية التي تتدلى من الطوق ٠

(١٤) هلريمة : هذه الريم : العندكم : التي عندكم ٠ الخنصر : الاصبع الأصغر من اصابع اليد ٠ عيش : اكلة شعبية معروفة ٠

(١٥) تكول : تقول ٠ يهل : يا اهل ٠

(١٦) عجايف : عقائف ، من عقفته ٠

(١٧) كالتلي : قالت لي ٠ هد : دع ٠ راعيه : صاحبه ٠

(١٨) حمود اسم الشخص المخاطب ٠ ما تضني : عقيمة لا تلد ٠

(١٩) بس : هنا بمعنى فقط ٠

(٢٠) الكطني : القطن ٠

(٢١) العلبيك : التي على (البيك) ومقصود بالبيك هنا السيد المترف ٠

(٢٢) حدري : انزلي ٠ يلشايله الجره : خطاب للتي تحمل جرة الماء ٠

(٢٣) يخوي : يا اخي ٠ يا جبرتي : لفظ مصاحب للاخوة والمعاضدة في الحيـــاة ٠ وتاتي ايضا في قولهم : مجبور به : اي واقع في حبه ٠ أبو ضره : الرجل المتزوج من امراة اخرى تكون ضرة للمراة الثانية ٠

(٢٤) تشوف : حتى ارى ٠ كيفية : فرح وسعادة ٠

(٢٥) الكوتي : القوت ٠ وهو هنا الجريش المهيا لعمل بعض الاطعمة ٠ وهذا المعنى يفيدنا اياه البيت التالي :

والله لولا الحيا لهبش الكوتي واكابلج على الرحى يم الزديجيه

(٢٦) عليج : عليك ٠ ببيتنه : في بيتنا ٠ فوتي : ادخلي ٠

(٢٧) اهبش : من التهبيش وهو ازالة القشور من الحنطة قبل اعدادها للطحن ٠

وآكابلــج عل الرحى يم الزريجيـــة(٢٨)

يا عــين حبي يا يوم يا عــين شــاهينه(٢٩)
يا عــين حر عـــلى الصــيد مطلجينــه(٣٠)
وانچـان زلفچ طفـــح بالچ تلمينـــه(٣١)
خليه ايچلچــل على راســي ورجليه(٣٢)

لاروح لابــن السبــت واقر بقـــرآنه(٣٣)
واجيب شـــدة ورد وازرع بستـــانه(٣٤)
لفيتـــها بالحضـــن وتگـــول بــردانه(٣٥)
ومنــين اجاچ البـــرد عينــي يلبنيـــه(٣٦)

يا شـــوفة الشفتـــها تورد وانا صلي(٣٧)
والزلف عثج النخـل عالخـــد مــدلي(٣٨)
والله المنطــوني هلـــچ لاهيـم واولــي(٣٩)
وانحر ديار الغـــرب وآخذ عراكيـــة(٤٠)

يا شـــوفة الشفتهـا وتلـم بفراشــه(٤١)
ما ظل غيــر الورد والجنـد انحاشـــه(٤٢)

---

(٢٨) اكابلج : اقابلك · يم : يا صاحبة · الزريجية : من زرقاء وقد تكون الصفة ماخوذة من لون الثوب الذي ترتديه المخاطبة ·

(٢٩) شاهينه : طائر معروف عينه جميلة وواسعة ·

(٣٠) حر : الطائر الحر المعروف عند الصيادين · مطلجينه : اطلقوه ·

(٣١) وانچان : اذا كان · طفح : هنا بمعنى انتشر · بالچ : بالك ، خذي حذرك · تلمينه : تصففينه ·

(٣٢) خليه : دعيه · آيچلچل : يكلكل ·

(٣٣) لروح : سوف اذهب · ابن السبت : كنية اليهودي · اجيب : اجلب ·

(٣٤) شدة : باقة · بستانه : الأصل بستانها ، وحورت لملائمة الغناء ·

(٣٥) لفيتها : ضممتها · تگول : تقول ·

(٣٦) منين : من اين · اجاچ : اتاك ·

(٣٧) يا شوفة الشفتها : رب مرة رايتها فيها · وهو يخص هذه الرؤية بالذكر لانها مخصوصة بموقف معين بالنسبة له · صلي : اصلي ·

(٣٨ ، ٣٩) عثج : عذق · علخد : على الخد · مدلي : متدلي · المنطوني : اذا لم يعطوني · هلچ : اهلك · اهيم : من هام بمعنى سار على غير قصد ·

(٤٠) انحر : اتجه · عراكيه : عراقية ·

(٤١) تلم : تجمع او ترفع بالنسبة لمعنى البيت ·

(٤٢) انحاشه : من حاش بمعنى قطف ·

فكيت صنـــدوكها وكلبت انا كماشـــه(٤٣)
لاعبتهـا من الصبـــح لوجيـه غبشية(٤٤)

يا شوفة الشفتـــها تجرش بجاروشـه(٤٥)
والزلف عثج النخـل علخد كــركوشه(٤٦)
تمنيتها بربنـــه واطلـع انا احوشـــه(٤٧)
وتكول بربن هلــي رابــي على الميـــه(٤٨)

اطلعنا انتصيد كطه ونسمع نغيط الوز(٤٩)
علشاذفات الهباري فوكك ثوب القـــز(٥٠)
ريت الحرمني عشـــيري يظل نومه فـز(٥١)
ويمـوت جنب وجنب والچفن عاريـــه(٥٢)

معنى النص :

نلاحظ بدءا أن نص هذه الاغنية غير متكامل وما اثبته هنا انما هوجزء ولا ريب من الاغنية . فشهرة اللحن وجماله وانسيابه جعلته على كل لسان ودفعت باغلب الشعراء الى مباراته . وهذا النص من النصوص الشائعة في البيئة الصحراوية كما نستدل على ذلك من خلال ما يضعه امامناهذا النص. فمطلع النص هو مطلع اللحن الذي اصبح لحنا معروفا من ألحان الاغـاني الشعبية وهو لحن (المولية) الذي يبتدأ عادة هكذا :

---

(٤٣) فكيت : فتحت . وكلبت : قلبت . كماشه : قماشه .

(٤٤) لوجيه : الى وجه . غبشيه : الساعات الاولى من الصباح .

(٤٥) الجاروشه : الرحى .

(٤٦) كركوشه : مجموعة من الخيوط تربط على هيئة كتلة على راس خيط آخر . وخيوط الكركوشة ذات الوان عديدة وتستعمل للتزيين .

(٤٧) بربنه نوع من النخيل . احوشه : اقطفه .

(٤٨) تكول : تقول . رابي : عائش . الميه : الماء .

(٤٩) اطلعنا : خرجنا . كطه : القطا . نغيط : صوت الوز .

(٥٠) علشاذفات : على الشاذفات بمعنى الناشرات . الهبـاري : جمع هبرية وهي وشاح يصنع عادة من الحرير . القز : الحرير .

(٥١) ريت : ليت . الحرمني : الذي حرمني . عشـيري : محبوبي . فز : بمعنى استيقظ على غفلة منه . والدعاء مقصود منه ان الذي يتسبب في حرماني من محبوبي يظل غير مرتاح وغير مطمئن .

(٥٢) يموت جنب وجنب : مقصود بالموت هنا : الشلل . والشلل النصفي خاصة . الچفن : الكفن . عاريه : بمعنى يكفن كيفما اتفق وبدون عناية .

يا عـــين موليتـــين ويا عـــين موليه
فرفح گليبـي عبـالي المجبـلة هيــه

لقد خفق قلبي من الفرح حينما ظننت ان التي اقبلت هي محبوبتي ٠

البيــض لو لبســن هــدوم البيــض
مثل الگمــر لو تشعشــع بليالي الگيظ
يلسمر لا تزعلن انتن اغـــات البيض
البيض ورد الكبـر يزهــي بــلا ميــه

ان النساء البيضاوات حينما يرتدين الملابس البيضاء يصرن شبيهات بالقمر حينما يشـــرق في ليـــلة مقمرة ٠ لكن ايتها النســـاء السمراوات لا تغضبن فانتن افضل من البيضاوات الشبيهات بورد الكبر الذي يزهي بلا ماء وزهره اكثر ما يكون ذابلا ٠

هلريمة الحدرت وردت بذاك الطار
الحيل مني رگد والعقل مني طـــار
السمرة عود گرنفل الشايلة العطار
والبيض لو وردن غـــزلان علميـــه

يشبه المرأة التي وردت واستسقت من جانب النهر والتي ســلبت منه الحيل والقوة والعقل بالغزال لجمالها ورشاقتها ٠ ثم يعود الى تشبيه المرأة السمراء بعود القرنفل ويشـــبه البيضـاء بالغـــزال حينمـــا تجيء للاستسقاء :

اريام جني طبـــگك اريام جن ليفـــوك
كوبان ذب العصـــا لا تضـــرب الغرنوك
يالصايغ ذب التراچي واشتغل بالطوگ
خلي الشناشل تصل لنهـــد البنيـــه

لقد وردن الماء جماعات وفرادى ٠ فدع العصا ايها الراعي (كوبان) ولا تضرب الغرنوك هذا الطائر الجميل ٠ وانت ايها الصـــائغ اكمـل (الاقراط) وابدأ بالطوگ ولتكن شناشيله طويله تلامس نهد المحبوبة٠

هالريمة العندكم تاكل بالخنصـر عيــش
تگول يهل الهوى ببـــلادكم ما عيـــش
لمن لويت الزلف لفـــة عجايف ريـــش
گالتلي هـــد الزلف يا بعد راعيـــه

هذه المرأة الشابة مترفة تأكل طعامها بطـرف إصبعها الصــغير وهي متافقة متهربة من حياتها هذه ٠ ولما امسكت بزلفها وعقفته كعقائف الريش الناعمة قالت لي : دع زلفي وأنت عندي اغلى من صاحبه ٠

هلريمة العندكم يحمــود ما تضـني
ما ريد منها ولد بس تگعــد بحضني
البطن بطن الغزال أبيض من الكَطـني
أبيض من الخيمـة العلبيگ مرميـه

هذه المرأة التي عندكم يا حمود عاقر لا تلد · وأنا لا أريد منها الا أن تجالسني ان بطنها جميلة كبطن الغزال ضمورا وبياضا · وكبياض الخيمة التي يستظل تحتها السيد المترف ·

يـا ريم ديحـدري يلشـايلة الجرة
عطشـان مي السـنة ما مر علي مرة
يا خوي يا جبرتي ما ريد ابو ضـرة
اريـد بيت وحـدي تاشـوف كيفية

أيتها الريم تعالي للاستسقاء · تعالي واستقي واسقيني · تعالي وأنت التي لا تريدين الا ان تعيشي لوحدك في بيت لا تشاركك فيه امرأة اخرى

يا ريمتي حـدري يلشـايلة الكـوتي
يمطر عليـچ المطـر ببيتنـه فوتي
والله لولا الحيـا لاهبش الكـوتي
وأگابلچ عـل الرحى يم الزريجيـة

تعالي أيتها الريم يا حاملة القوت واستظلي ببيتنا من المطر · فلـولا الحياء لانجزت ما انت آتية من اجله ولقابلتك على الرحى مساعدا اياك فـي انجاز عملك ·

يا عين حبي يا يوم يا عين شـاهينه
يا عين حر عـلى الصـيد مطلجيـنه
وانچـان زلفـچ طفـح بالـچ تلمينه
خليه ايچلچـل عل راسي ورجليـه

وانت يا صاحبة العينين الجميلتين الشبيهتين بعيني طائر الشاهـين والطائر الحر صفاء وجمالا · اذ انتشر شعرك دعيه ولا تحاولي ان تصففيه · دعيه ينتثر على رأسي وأرجلي · وواضح هنا انه يمدحها بطول شعرها ·

لاروح لابـن السـبت واقرا بقـرآنه
واجيب شـدة ورد وازرع بسـتـانه
لفيتها بالحضـن وتگـول بردانـه
ومنين اجـاچ البـرد عينـي يلبنيه

لقد بلغ حبي لها حدا جعلني أفتديها بكل شيء حتى اني تكلفت مركبا

صعبا وجلبت لها باقة ورد من ابن السبت التاجر المعروف . وفي البيت الثالث والرابع اشارة الى الغنج والدلال الذي انطبعت عليه هذه المحبوبة .

يا شوفة الشفتها تورد وانا صلي
والزلف عثج النخل عالخد مدّلي
والله المنطوني هلج لاهيم واولي
وانحر ديار الغرب وآخذ عراگيه

لقد رأيتها مرة وانا اصلي وكان زلفها يشبه عذق النخل المتدلي . لقد كنت بها مشغولا ولست ارضى بغيرها امرأة وحبيبة .

يا شوفة الشفتها وتلم بفراشه
ما ظل غير الورد والجنبد انحاشه
فكيت صندوگها وگلبت انا گماشه
لاعبتها من العشا لوجه غبشيه

قد لا نحتاج الى تبيان معنى هذه الابيات فمعناها واضح الدلالة مكشوف التبذل .

يا شوفه الشفتها تجرش بجاروشه
والزلف عثج النخل علخد كركوشه
تمنيتها بربنه واطلع انا حوشه
وتگول بربن هلي رابي عل الميه

رأيتها وهي منشغلة برحاها وكان زلفها متدليا على خدها . تمنيتها ان تكون كنخلة البربن المترعرعة على جانب النهر لارقاها قاطفا من ثمارها .

اطلعنه نتصيد گطه ونسمع نغيط الوز
علشاذفات الهباري فوگ ثوب القز
ريت الحرمني عشيري ظل نومه فز
ويموت جنب وجنب والچفن عاريه

كنا في رحلة لصيد القطا . وكنا نسمع صوت الوز الذي ذكرنا بصاحباتنا الناشرات الوشاح على ثياب الحرير . فيا ليت من حرمني محبوبتي يبقى خائفا وجلا محروم الطمأنينة مسلوب الامن . ويا ليته يموت مشلولا وعاريا .

وبعد .. فقد لا يعطي هذا النص للقارىء الجمال الذى يستشعره كل من سمعه يغنى في الحفلات الشعبية . فان للحن الاثر الكبير في جماله وتأثيره وهذا شأن كبير من الاغاني الشعبية الشائعة . علما باننا لا نفتقد جمال الكثير من التعبيرات والصور والتشبيهات والكنايات في هذه الاغنية . وقد

نتفق مع من يعيب بعض التعبيرات المكشوفة أو التي تمثل انحطاطا في تصور الناظم وتدل على ابتذال ممجوج الا ان هذا لا يمكن ان ينتقص من الاغنية ككل من نواحي الجمال والامتاع والتاثير . وقد يغفر للناظم ان يكون قد هدف الى تصوير انفعالاته وأحاسيسه بصدق وعفوية . وهدف الى التعبير عما يجيش بنفسه وبكلمته الصريحة دونما حاجة الى الالغـــاز والخفاء . ولعلنا نحمله مرتقى صعبا اذا ما طلبنا معه اللجوء الى اسلوب آخر يكـون الخفاء فيه اكثر من التصريح ويكون الرمز فيه أكثر من البيان . لقد كانت الاغنية الشعبية عفوية في أغلبها . مرتجلة في اغلبها ولكنها أيضا كانت مؤثرة تشد الاسماع وتهز النفوس في أغلبها أيضا .

الفصل الثانى

التشبيه في الأغنية الشعبية

قد يبدو من عنوان هذه المقالة اني عمدت الى دراسة التشبيه كفن من فنون القول ثم تقصي ما جاء منه في الاغنية الشعبية العراقية · ولعل كتب البلاغة العربية بوفرتها تغنينا عن الامر في مثل هذه العجالة الا أنها لا تعفينا عن توضيح المراد بالتشبيه توضيحا موجزا لا يتعدى التعريف ·

ونختار للتنوخي تعريفا يفي بالغرض ويبين المقصد قال : التشبيه هو الاخبار بالشبه وهو اشتراك الشيئين في صفة أو أكثر ، ولا يستوجب جميع الصفات[1] ·

ولا شك في أن التشبيه أحد الطرائق التي يغنى بها الادب · والشاعر المجيد يستطيع بقوة ملاحظته واتساع خياله ان يثري شعـره بطائفة مـن

---

(١) علم البيان ، دكتور بدوي طبانه عن الاقصى القريب للتنوخي ص ٣٦ ·

التشبيهات يكون لها في الشعر مقام واي مقام · وقد حفل الشعر الشعبي هو الآخر بكثير من التشبيهات الطريفة اللطيفة · ولو انها لم تتجاوز نطاق المحسوس فظلت تتسم بطابع العفوية والبساطة · وتقصي هذا الفن من الغناء الشعبي يضع أيدينا على كثير من ميزات هذا الغناء · وقد عمدت الى هذا المبحث لدراسة الاغنية الشعبية العراقية القديمة من جميع جوانبها ولا شك في أنها ثمينة بهذه الرعاية · الا اني أود أن أوضح ان هذه المقالة اقتصرت على الاغاني الشعبية غير الذائعة والمقتطفة من مجموعة لي لم تر النور بعد ·

ولعلي لا آت بجديد اذا قلت ان اهتمامنا يجب ان ينصب على التراث الذي لم يدون بعد . وهو كثير ، احتراسا من الاندثار الذي أصاب التراث الشعبي نتيجة الاهمال والتقاعس ولعلنا لا نعدم مثل هذا الاهتمام في أيامنا هذه وقد تفتحت قلوب المخلصين والغيارى على تراثنا فانبرت طائفة من الاقلام الشابة للبحث في مجالي الحياة الشعبية وفي مبادرتها هذه خير يرجى وأمنية تتحقق · ولنتجاوز هذا الاطناب الى نصوص من الاغاني الشعبية نتبين فيها المقصد ونبدأها بهذا المطلع من أغنية لم يحفظ منها الرواة سواه ولعلنا نعثر عليه في بحثنا المتواصل :

لا توجعين الخشِف بالله يا دگاگه
ويروب روب الزبِد خوفي على ساگه(٢)

شبه المرأة البيضاء الجميلة بالخشف وهو من التشبيهات الشائعة وثمة تشبيه رائع في الشطر الثاني من هذا المطلع ذلك هو تشبيه اكتناز الساق ونعومته ونضارته بالزبدة · فاذا نحن تمثلنا الزبدة بعد مخضها ادركنا دقة التشبيه وطرافته ·

ومن التشبيهات التي كثر ورودها في الاغنية الشعبية تشبيه الخد بالورد لما بين طرفي التشبيه من مشترك جامع هو النضارة والنعومة والبياض المشرب بالحمرة :

يم الخديد الوردة اللاهدني(٣)
اربع مياجن عل الصدر لاهدني

وكذلك هذه الاغنية :

لگعد لچ عل البير گعود
حليوه يم عيون السود

---

(٢) راب اللبن روبا ورؤبا : خثر القاموس المحيط ٧٩/١ والخشف ولد الظبي اول ما يولد او اول مشيه · نم ١٣٨/٣ ·

(٣) المياجن جمع ميجنه وهي مطرقة من خشب تدق بها اوتاد الخيمة ·

لصعد وارمي لج عنگــود
خــــلال من البستـــان(٤)
شــفته يمشي عل الحدود
مثل الوردة براس العـــود

وشبه الخد أيضا بالقمر فهو كشعاعه في الصفاء والضياء والحسن :

بَسك تخوَر يا حلو الطول شــتدَور(٥)
خدك شعاع الگمــر بالمجلس ينـــوَر

وقد حظي (الخد) بعناية الشاعر الشـــعبي لذلك نجـــد وفرة من تشبيهاته في الاغاني الشعبية ٠

ومن التشبيهات النادرة تشبيه الخد بطي قماش (الگبردين) اذ أن لهذا القماش متانة ولطيته تناسق ٠

يالســـمرة لا تزعلـــين
خــدچ طيـــة گبـــردين
انطيني من زليفـچ خصله
اســـوي لسيــفي گياطين

وتشبيه المرأة الرشيقة الضامرة بالغزال هو الآخر حسن مقبول دائر في الاغاني الشعبية وقد وقع في اللهجة الدارجـة على ألسن النـــاس فالمرأة كالغزال والطفلة كالغزيلة وبينهما اكثر من صفة جامعة ٠٠

نگضـــي العمـــر جـيران أحـــه يمـــه عبـــالي
وحده غـــزال جبـــال احـــه تنطـــي تحـــالي(٦)

ومن طريف التشابيه حفلت الاغنية الشعبية بجمهرة وفيرة أورد لك منها مثلا يدور حول تفضيل المرأة البيضاء على السمراء ٠ وقد حاول الشاعر أن يوجد بين الصفتين تنافرا تتشامخ به المرأة ذات الصفة المحبوبة(البياض) على المرأة السمراء وللنفوس فيما تعشق مذاهب :

خلي السُـــمر ينجلـعـــن(٧)
خـرنوب مــــا ينبَلـعَـــن
البيــــض لَمّـــن يَلْـعَـــن

(٤) الخلال : التمر قبل نضجه ٠

(٥) يخور : تطلق العامة هذه الكلمة على الرجل الذي يبحث عن شيء ويطيـــل البحث في نفس المكان فيقطعه جيئة وذهابا ٠ ومعنى النص : عن (أي شيء تبحث يا حلو الطول فكان شعاع خدك كشعاع القمر نور المجلس) ٠

(٦) احه صوت للتالم ٠ تحالي : ملاع ٠

(٧) ينجلعن : يغربن عن وجهي ٠ الخرنوب : ثمار الشوك ٠ يلعن : يظهرن ٠

فاين هذه من تلك ؟ وشتان ما بين الخرنوب والفضة !

وشبهت رقبة المرأة برقبة الهدهد ٠ وأظن أن هذا التشبيه ليس بسبب الطول المستحب للرقبة فقط وانما لان رقبة الهدهد محاطة بريش ذي لون يختلف عن بقية ريش جسمه اذ يشكل قلادة حول رقبــة الهــدهد فكانه استوحى صورة جيد المرأة المحاطة بالقلادة من هذه الصورة :ــ

گــومي بطــولچ علگــي العــلاگه
يركيبــة الهدهــد يا بطن النــاگه

وفي مطلع الاغنية هذا تشبيه آخر ذلك هو تشبيه بطنها ببطن النا ّــه ونست أشك في ان القارىء يتساءل معي عن جمال هذا التشبيه وهو أقرب الى الرفض منه الى القبول ٠ واذا ما عرفنا أن لهذا المطلع رواية أخرى هي الصحيحة فستزول الغرابة اذ ان الشاعر يتخذ من بطن الغاكه التي هي طائر معروف بضمور بطنه مشبها به :

گومــي بطــولچ علگــي العــلاگه
يرگيبــة الهــدهد ,يبطن الغــاگه

ولم يغفل الشاعر الشعبي عن تصوير حالة نفسية يمر بهــا ٠ وكان يبحث عن قرين لها فيما يحيط به من حيوان فحاله كحال الذئب وهيامــه كهيام الجمل :

غابت عليَ الشمس وآني بشعــيب ثميــل(٨)
اهوم هــوم الجمــل وافطن برچب الخيــل

فلنتصور معا حال منفرد يشتمله الظلام في صحراء مترامية وليس له من أنيس يبدد الوحشة ولا رفيق يزيل الغربة ٠ ولا ريب فان نفس الهائم الذي يطلب أملا ومبتغى تكون جياشة بالحنين والالم والامل والترقب ٠

وقد جاء في الاغنية الشعبيــة تشبيه قلب المحب الخافــق بالقِدْر والجامع بين الامرين هو الغليان ٠ وهو تشبيه حسن في الدلالة على عــدم استقرار كل منهما وشدة ما يعتمل في القلب من ألم الهوى ٠

گلــبي چِــدِرْ ويفــور أحــه فــورچ يا دله
راس النهــد مكســور أحــه ماضــي محله

ومن أحسن التشبيه واطرفه قول الشاعر :

يــا معــبِّر الشــختور أحــه ديره علَ خــيره(٩)
مثــل الرمــد بالعــين أحــه عشــگك الزغيره

(٨) شعيب : تصغير شعب وهو الفرع الذي يصب في الوادي ٠ وثميل : وادي معروف.
(٩) الشختور : من وسائط النقل النهرية القديمة ٠ عل خيره : مؤخرتها ٠

فما أشبه حال العاشق الواله التائه بحال الارمد الذي يسحقه الالـم كلما اختلج له جفن ·

وقد لا نبالغ اذا قلنا ان العين المصابة بالرمد لا تستطيع الرؤية وكذلك العاشق المتيم الذي شغله الحب عن كل شيء فهو لا يتمثل في صحوه ومنامه سوى طيف الحبيب · ويسرني ان يكون القارىء قد وجد فيما قدمت متعة وطرافـة ·

الفصل الثالث

الحزن في الاغنية الشعبية

الاغنية الشعبية بطبيعتها تعبير عفوي عن خوالج النفس وما يعتريها من انشراح وسرور وهم وحزن واضطراب وسكون • فالنفس الانسانية لا تعرف حالة واحدة ولا يمكن لها أن تعيش مثل تلك الحال • والنصوص الادبية باعتبارها تصوير مرهف للنفس في مختلف نوازعها يمكن الاعتماد عليها لتبيان الحالة النفسية والشعورية للكاتب ومن ثم للمجتمع ودراسة ما يمكن أن تعكسه من ظلال وألوان • وها نحن اولاء ندرس الاغنية الشعبية القديمة على ضوء هذا الاعتبار • واول ما تجب ملاحظته هو ان الاغنية الشعبيةمجهولة المؤلف الا ما ندر ، كما انها لا تنغلق على مشاعر فردية وحسب بل تتجاوز الاطر الفردية لتعبر عن مشاعر الجماعة وهذا ما جعلها على كل لسان •فقد حاول ناظمها أو ناظمتها[1] استيحاء افراح الناس وهمومهم واحزانهم ليصوغوها في كلمات قليلة ومعبرة يستوحون من الموت ما يثير الاسى في نفس كل فاقد ويستوحون من السرور ما تقر به كل عين • لذلك اكتسبت الاغنية الشعبية معنى انسانيا وشمولا جماعيا • ولم يرتبط الحزن بالموت وحسب بل تجاوزه الى الاغتراب • وقد حفل الادب الشعبي بنماذج تصور غربة الانسان بين أهله وعشيرته •

وللحياة بمرارتها وتقلباتها أثر جلي على الفرد ومن ثم على المجتمع • ولم تخل الاغنية الشعبية من ظلال لهذه الاسباب • فقد وصفوا الحياة بأنها (فلك دوار) لا يؤتمن يرتفع بالانسان حينا ويهوي به الى القرار في حين

(١) عثرت على نصوص غنائية كثيرة لا يخالجني الشك بصحة نسبتها الى المرأة وسانشرها في حينها •

آخر . ولم يجدوا لهذه الظاهرة تعليلا فرضوا بالحظ و (القسمة) و (النصيب) وقالوا : (المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين) . ولاننسى اثر العوامل الاخرى ومنها المرض ورواسب المآسي التي تسببها الطبيعة كالفيضان والصواعق والعواصف والنكبات والكوارث التي اكتوى بهاالعراق في مسار التاريخ . هذه الامور مجتمعة كانت الخلفية الواضحة والعميقة لما ألمّ بالفرد العراقي لذلك نجد جل الغناء الشعبي العراقي حزينا وربما بلغ حد النواح . ولا يزال الغناء الريفي الى يومنا هذا مطبوعا بهذا الطابع . ويرى الدكتور معمر خالد الشابندر (ان هذه الحالة التي نشكو منها والتي كانت وما تزال مادة النقد وهدف التجريح والتي لم ترد الى اصلها كماينبغي بعد تنبعث من كآبة انفعالية عامة في المجتمع الذي نعيش فيه وهي بلا شك رد فعل لعصور طويلة من الشجن والاسى والتشاؤم والبؤس)[٢] . لذا حفلت اغانيهم بكلمات (اليتم) و (العزاء) و (الحزن) وصوروا البعد والفراق بالصورة التي صوروا بها الموت وكأنهما سيان . ولعل في هذا ما يوضح عمق غور جذور الكآبة والانطواء في نفوسهم . فحينما رحل الحبيب وبعدت بمطيته الايام قيل :

يوم ارشدت يا حلو وصيت من بينا[٣]
مثل اليتيم بغرب واراك ظلينا[٤]
يوم ارشدت يا حلو وصيت جيراني
لوجاك زين بنبأ عزوه من شاني[٥]

وكان تعلق الفرد بالطبيعة وثيقا لانها المؤثر الاول والاهم في حياته فكان سعيه ينشط حينما تصفو الشمس وتسخو بالدفء ويعتدل الجو فتراه مسرورا يفيض بالبشر وينعم بالحبور ويتغنى بما يحفظه من اغاني الافراح كـ (الميمر) و (المانى) و (البستة) الا ان هذه الصور المشرقة الجياشة بتفاؤل طفولي لا تلبث ان تنطوي بتجهم السماء وتلبدها ولعلهذه الصورة من اهم موحيات الحنين واكثرها اثارة للعواطف الجريحة والقلوب المكلومة اذ تسيطر على النفوس غمامة من الكآبة والحزن لتثير في النفس الفاقدة الشجن والالتياع . وقد اكتنزت اغانينا الشعبية القديمة بتصوير رهيف لهذه الحالة :

---

(٢) الامراض النفسية الشائعة : الدكتور معمر خالد الشابندر ص (٨٢ ــ ٣٨) مطبعة المعارف ــ بغداد ١٩٦٨ .

(٣) ارشد : سافر . وتقول العامة للمسافر : راشدة تفاؤلا بالتوفيق بالسفر ودعوة للحرز من الاصابة بمكروه .

(٤) الغرب : الغربة أو بين الغرباء . وراك : وراءك .

(٥) جاك : جاءك وزين : اسم رجل .

رگيّـــه تنــوح والدنيــا ِمســچْبَه(٦)
مطـــر وجعــود خـــلاني مَســـچِبَه(٧)
عجـــاج الضـــعن عنبـــر والمسچِبَه(٨)
أخـــيرْ مـــن الگـــرايا المعطْنـــات(٩)

فحينما تتجهم الطبيعة وتتلبد صفحة السماء بغيوم كثيفة تخيم الكآبة على النفوس وتثار دواعي الحزن والغربة والاسى فتنبعث اللوعة بعنفوانهـا اللاهب وتترقرق في العيون عبرات وتجيش النفوس بالبكاء وتنقلب الاغنية الى نياحة تنساب في الاذن لحنا دافقا بالاسى ونغمة حزينة تصوغ مع خرير الماء جوا مأساويا ليثير في النفس شجونا وشجونا • ومن صور الحزن في الاغنية الشعبية ما يكتنف أغاني الفراق والغربة وهي لا تقل تأثيرا عنغيرها من الاغاني الحزينة :

يا كـــركي وين ديرتنـــا واهلنـــا(١٠)
ويا وين الطـــارش ليوصلنـــا لاهلنا(١١)
خطـــوطِ ســـــودْ دزينـــا لاهلنـــا(١٢)
تره الســـجّان واگـــف عل الرگاب(١٣)

أين يا طير الكركي بلادنا وأهلنا واين الدليل الذي يأتينا باخبارهم ؟ لقد كتبنا الرسائل نستحلب اخبارهم واحوالهم • فاين حط بهم النـــوى، وسارت بهم الركائب ؟ ان رسائلنا اسودت من الشجن والهم واننا لنعيش في محبس حتى لكأن السجان قائم على رقابنا !

ومن النصوص التي ارتســـمت فيها غربة الانسان في هـــذه الدنيـا وانفضاض الاصدقاء من حوله وكأنه يعيش وحيدا يغالب قسوة الايام وغلبة الدهـــر : —

أريد أبچـــي على روحـــي وانا حـــي(١٤)

---

(٦) ركية ووردت في رواية اخرى (تريه) : اسم امراة • مسچبه : ممطرة •
(٧) مسچبة : حزينة باكية •
(٨) عجاج الضعن : الغبار الذي تثيره الاغنـــام عند مسيرها • مسچبة : أصلها (المسك به) يعني ان عجاج الضعن كالعنبر المعطر بالمسك الذي هو عطر نفاذ •
(٩) الكرايا : القرى • المعطنات : أعطنت القرية اذا توقفت نواعيرها ومنت سواقيها بالماء الآسن •
(١٠) الكركي : طائر جبلي معروف •
(١١) الطارش : الرسول او المخبر •
(١٢) خطوط : رسائل • ولا تزال الكلمة مستعملة في الريف • دزينا : ارسلنا •
(١٣) واكف : واقف • الركاب : الرقاب ، جمع رقبة •
(١٤) أبچي : ابكي • اناحي : انوح •

ابعيـــني ضـاكت الدنيـا وانا حـــي[15]
صديجْ المـا بچـــي عنـــي وانا حي[16]
شـــلي بيــه يــوم ردات التـــراب[17]

انه لما يسلي النفس ان يندب الانسان حياته وهو حي بعد ما ضاقت به السبل وادليمت أمامه الخطوب وليس له من صديق يعزيه ويشـــاركه المرارة فما نفعه بالصديق اذا ما انطوت صفحته وغيب تحت الثرى ؟!

ولم تقتصر بواعث الحزن والكآبة على ما ذكرنا بل هناك بواعث كثيرة منها هموم الحياة والتحسس للمستقبل ولما يخبأه القدر اذ تكثفت هـــذه البواعث بشكل مرّغ حياة الانسان بالتشاؤم والخيبة والانطواء والكآبة والا فماذا يعني مطلع الاغنية :

أريد اغـني وادير ِغنـاي بالمگـــلوب
والشوك يحمل ِرطَبْ والبَرْبنة خرنوب

وماذا تعني أيضا هذه العتابة :

على گلبي چثير حسـاب والهــم[18]
يبيدي لسحن الخرنوب والهـــم[19]
ولا وليدِ يزيح الغيظ والهـــم[20]
بلچـــي يصـــير للعلّـــة دوا[21]

لقد انطفأت شموع الحياة وأدال الهم والتحســـب فيض الاشـراق والسرور وهوى بالنفس سحقا وتثبيطا من بارقات المنى والامل فلا من وليد رضيع يزيح هذه الصور المأساوية وتتجلجل مع ضحكاته البريئة رفةطموح وتطلّع يمكن ان تكلأ الجرح وتبرأ السقم . ومن نصوص العتابة الجياشة بالاسى والتصورات الكئيبة هذا النص :

گراجـي فوگ سـحل الـدير جفـنّ[22]

---

(١٥) ضاكت : ضاقت ، واناحي : نواحيها .
(١٦) صديج : صديق . واناحي : وانا حي .
(١٧) شلي : ما نفعه لي . ردات : رد عليه التراب أي اهاله عليه .
(١٨) گلبي : قلبي . چثير : كثير .
(١٩) يبيدي : بيدي . اسحن : اجعله دقيقا ناعما . الخرنوب : نوع من ثمر الاشواك مر المذاق . وفي رواية اخرى (الدرنوج) وهو حشرة سامة (مصطفى جواد في المباحث اللغوية في العراق ص ٢١) . الهم : التهم .
(٢٠) وليد : الطفل الرضيع .
(٢١) العله : يقصد بها هنا المرض . والعلة هي الاخرى مرض معروف تنتج على اثره كتلة لحمية دائرية كبيرة داخل جسم الانسان . دوا : دواء .

ضلوعي من مِشَدَّ السير جضنَّ[٢٣]
يعلمي لو لفا عل البيض جضنَّ[٢٤]
تــوارن واجدعن روس الذواب[٢٥]

انها لمفارقة ان تؤلمني اضلاعي حين صوتت الكراكي وهي على جوانب وادي الدير • فان كان هذا الاتفاق بين الالم وصوت الكراكي نذير موت فما أشد وقع الفجيعة على أحبتي • يا لمصيبة النسوة حين يبلغهن النعي فيتوارين ويجد عن ذؤابات ضفائرهن •

---

(٢٢) كراجي : اصلها كراكي وهي من تحريف اللسان الدارج • سحل : جانب الوادي الذي يتراكم فوقه ما تجرفه مياه الامطار والسيول • الدير : محافظة من محافظات الجمهورية العربية السورية • جضن : صوتت •
(٢٣) السير : الحزام • جضن : آلمتني •
(٢٤) علمي : نعيي • لفا : حل • عل : على • جضن : صرخن •
(٢٥) جدع : قص • روس : رؤوس • الذواب : الذوائب •

الفصل الرابع

من قصص الأغاني الشعبية

من الطريف حقا ان ترتبط الاغنية الشعبية بالقصة وان يتلاحم فـن كل منهما هذا التلاحم العفوي العميق والمعبر ٠ فيصوغ فن القصة حكايـة الانسان البسيط الساذج تلك الحكاية التي تسطر بطولته الرائعة وانتصاره على الحياة ٠ ويصوغ فن الاغنية ألحان نفس ضاربة بجذورها في اعماق ألم حاد ولده مجتمع متناقض قاس ٠ وليس بدعا ان تكون هذه المصادفة جامعة بين فنين وانما هي خصيصة ملازمة لانساننا العظيم تؤكد اصالته وعراقته وبطولته ٠ ان القصة الشعبية بالتحامها بالاغنية كونت وسطا حيا نما خلاله احساس الفرد وازدهرت معطياته الوجدانية ضمن تجارب رهيفة صادقـة تعبر أوضح التعبير عما يكابده الفرد في عيشه وفي حبه ، ان الاغنية حينما تتشكل اطرها خلال قصة او موقف (درامي) تكتسب أهمية خاصةوابعادا أرحب واكثر وضوحا لانها ولدت وفمها في ضرع الصدق ترتضع منه ٠ ان الاغنية الشعبية كقصتها عفوية بسيطة لكنها عميقة ٠ ســاحرة واخاذة ٠ واتساءل بعد هذه المقدمة : ألا يدل التحام القصة بالاغنية في الادب الشعبي على شيء ؟ أتساءل وأنا أكاد أجزم باعتقادي بان هذا الالتحام بين القصـة والاغنية في الادب الشعبي انما يدل على وحدة التجربة التي لم تكن لتنفصـل

صاحبها في أي قالب صاغها ما دامت اشكال التعبير حاضرة في ذهنه وواضحة أمام ناظريه . فلتكن القصة أو الاغنية او لتكن القصة والاغنية معا ، فليس ذلك مهما ما دام القصد هو افراغ تجربة ولدها الشعور أو الاحساس ،وليس لناظمها أو قائلها وعي خاص لشكل التعبير أو أبعاده المهم أن يعبر الناظم عما يختلج في صدره او يتماوج بين جانبيه ، فهو ـ أي الناظم ـ لم يكن ليلحظ الخيط الرهيف بين هذا الفن وذاك بل ولم يهدف في الاصل الى معرفته . لكنه لم يغفل ايضا معرفة الحكاية باعتبارها متعةالليالي وانيسةالجلاس ولم يغفل معرفة الاغنية باعتبارها اللحن الدافق الذي يطرب النفوس وقد أخذت بها نشوة الايام ومرارة المحن وثمالات القهر . وعلى أية حال فالاداتان عنده متشابهة ما دامتا تكونان شكلا من أشـكال التعبـير في الادب الشعبي ، وليستعذب بالحكاية كلما اجتمع شمل الجمع في مضيـف أو ديوان[1] . وليطرب بالاغنية كلما انسابت على وتر الرباب تغني العتابة او الابوذية بحنجرة صافية يأخذ تحزينها النفوس كل النفوس .

ولنقرأ معا سيرة ذلك الفتى الذي أحب حبا عفيفا صادقا نقيا حتى شغله ذلك الحب عن كل شيء الا انه لم يكد يعلن حبه ويذيعه بين عائلته وعائلة محبوبته حتى تنكرت هذه العائلة وتلك لحبه ، فبذل من جهدهووقته في اقناع اهلها الا انه لم يحصل الا على الرفض . وساءت الاحوال بينعائلته وعائلة محبوبته فعزمت هذه الاخيرة على الرحيل تاركة وراءهـا قلبـا متعلقا بها تعلق الروح بالحياة . وما كان لقلوب قدّت من الصخر ان تلين لنداء الروح وهمس الاحاسيس فظل الفتى العاشق يعاني من الصبابةماينحل الجسد ومن الغرام ما يشغل العقل ويخلب اللب . وتشاء الاقدار ان يصاب هذا الفتى العاشق بمرض يسقمه ويرديه طريحا معانيا لحظات العذاب . ويظن أهله ان به **مرض خبيث** يسقمه وما به مرض غير الصبـابة ودنف الشوق . ويعيى العارفون عن وصف دواء يشفي سقمه أو يزيل كربته فليس من دواء بعد أن خفي الداء .

ويفكر أحد هؤلاء العارفين بأن يداويه بالكي لعل بالكي[2] الشفاء . فيضع قضبانا من الحديد على النار الا ان الفتى العاشق ما ان يرى القضبان حتى ينطق ويقول :

---

(١) الديوان هو المضيف الذي يخصصه رئيس القبيلة او احد الموسرين فيها لاستقبال الناس ويبقى مفتوحا على الدوام . والديوان هو مقياس من مقاييس الكرم في الريف وعند العشائر ويكون فيه مجتمع الناس للتداول في شؤونهم او لتمضية الوقت وسماع القصص والاخبار .

(٢) الكي من وسائل العلاج الشعبي وقد يسمى (النصب) ويكون عادة بواسطة قضيب صغير من الحديد او بمنجل وقد يكون بقطعة من القماش تلف جيدا ثم يشعل رأسها ويطفأ ثم يكوى به .

طبيب كف المحـــاور لا توجع جنوبي[٣]
طبيب ما بي وجـع ودواي محبـــوبي[٤]

هذا هو الداء وهذه هي العلة كما شخصها الطبيب الهندي الذي جاء به أهل المريض :

جابوا طبيب الهِنِدْ عَنْ وصُفگ بيده[٥]
ويگول ما بَه وجع ودواه اللـي يريده[٦]

وهكذا التحمت الحكاية بالاغنية وتممت احداهما معنى الاخرى ٠

وقصة أخرى اسردها هنا هي قصة ذلك الشاب الذي احب هو الآخر حبا ملك عليه عقله وقلبه وخاب حبه كما خاب صاحبه الاول في الحكايـة الاولى اذ تزوجت محبوبته من آخر غيره ٠ فأراد ان ينسى محبوبته هذهفعزم على الزواج بغيرها وتزوج فعلا بعد مضي أيام ٠ ويشاء القدر أن يلعب دورا في هذه الحكاية فلم تمض سنوات عديدة حتى توفي الرجل الذي تزوج من محبوبته الاولى بعد ان خلف منيا ولدا ٠ فسره نبأ الوفاة الا انه لميستطع أن ينفصل عن زوجته لوثوق ارتباطه بها على مر الايام وخاصة بعد أنأصبح ابا لبنت جميلة ٠ وكبرت البنت واصبحت في سن يؤهلها للزواج وتشاء الصدف ان يخطبها فتى المحبوبة الاولى وحالما عـــرض على والدها أجابـــه بهذه العتابة :

يا گانوص الظبي بالك مـن دراك[٧]
خفي لا تظهر النوجة مـــن دراك[٨]
اني طحت بهواها گبل مـا ادراك[٩]
أبـوك وصـــار له بأمك هـــوى[١٠]

وثمة قصة أخرى اذكرها هي قصة ذلك الوالد الذي قال شطرين من

(٣ ، ٤) المحاور : واحدها محور وهو قضيب من الحديد يحمى على النار ويكوى به المريض ٠ جنوني : جانبي ٠ وجع : مرض ٠ دواي : دوائي ٠
(٥ ، ٦) عن : تحريف ان ٠ صفگ : صفق ٠ يگول : يقول ٠ بَه : به ومعنى النص : ايهـــا الطبيب لا تستعمل هذه القضبان لكي جسمي فليس بي مرض وانما دائي حبيبتي ٠
(٧) گانوص : قانص ٠ بالك من دراك : خذ حذرك من الخطر ٠
(٨) النوجة : حفرة يختفي داخلها الصياد ٠ من دراك : من أدراك ، من أعلمك ٠
(٩ ، ١٠) طحت : مستعملة هنا بمعنى وقعت في غرامها ٠ گبل : قبل ٠ مادراك : قبل ان يدرك ويهوى امك ٠ ومعنى النص :
(ايها المختفي لصيد الظباء خذ حذرك ٠ والظباء هنا مقصود بها المراة ٠ فهو يريد ان يقول له : ايها المحب خذ حذرك حينما تقدم على ابنتي ٠ وليبق ما بيننا ســرا لانك تدرك باني احببت امك المتوفاة قبل ان يدرك ابوك ويصبح في سن تؤهله للزواج ٠ عليك ان تعلم هذا الامر قبل ان تقدم لخطبة ابنتي ٠

العتابة وعجز عن اتمامها فطلب من ابنه أن يتمها له والا فهو مطرود من البيت والشطران هما :

اگـذل التـرف مارب يالمنسبوگك
نعام وخلجـة البـاري منسبـوگك

فاحتار الولد بالامر وخرج مشتت الخاطر حائرا لا يدري ما يفعل فهام على وجهه في المزارع والحقول • وتشاء الصدف ان يمر بشاطىء نهر فيشاهد في بقعة ساكنة منه قطعة من خشب الغرب تتـوقد فيها النار فيؤخذ بسحر منظر قطعة الخشب المتقدة فيقول :

عليـهم نس دلالـي مثـل ما نس
بوگك الغرب ومناحر آذاري الهـوا

فرجع الى والده فرحا وأتم له العتابة قائلا :

« اگذل الترف مارب يالمنسبـوگك[11]
نعام وخلجـة البـاري منسـبوگك
عليهم نس دلالي مثل مـا نس بوگك
الغرب ومناحر آذاري الهوا •• » •

فاكرمه والده بعد أن عرف أمر قطعه الخشب التي أوحت له تتمة العتابة • ولعلنا نلاحظ بعد أن سردنا بضعة نماذج من القصة الشعبيـة المقترنة بالاغنية ان القصة الشعبية متعددة المواضيع بتعدد نواحي الحياة التي كان يضطرب في جمالها الانسان سواء في الريف او في البادية • وهي

---

(١١) صحح لنا الاستاذ عامر رشيد السامرائي رواية هذا النص بالرواية الآتية وهي اقرب الى الصواب من روايتنا فله منا الشكر :

اگـذل الترف ماربين من اسـبوگك[1]
النعـام • وخلجة البـاري من اسبوگك[2]
عليهم نس دلالي مثـل ما نس بوگك[3]
الغـر ومنـحره ذاري هـوا[4]

١ ـ (ماربين) : ليس من ريب في انها (من اسبوك النعام) اي من السباكيات وهو الريش الناعم في الجناح ، والشاعر هنا يشبه ظفائر حبيبته بريش النعامة الناعم • ويجدر بي ان اشير الى ان الشطر الاول يروى ايضا على الشكل التالي :

اگذل النرف سارجهن منسبوك ، اي سرقهن •

٢ ـ (من اسبوك) : من السابق •

٣ ـ (عليهم نس دلالي) : احترق قلبي •

(مثل ما نس بوك الغرب) : فمثلما احترق جذع الغرب المجوف •

٤ ـ (ذاري هوا) : تيار من الهواء ، هواء عاصف •

(عامر رشيد السامرائي ـ التراث الشعبي ع١١ تموز ١٩٧٠)

ليست قصة حب وحسب وان كان الحب في الاغلب هو النسغ الذى يبعث الحياة في اوصال قصصهم • وخاصة قصص الاغاني التي أنشر قسما منها في هذا المقال • الا اننا يجب ان نعترف ان قصص هذه الاغاني ليست قصصا كما توحيه ابعـــاد هـــذه التسميـــة وانمـــا هي حكايـــات تأخـــذ في أحيان عديدة بعض أطر القصة أو أبعادها • وثمة ملاحظة أخرى تبدو لنا جلية من القاء نظرة على الاغاني العراقية القديمة • هذه الملاحظة هي ان بعض الاغاني الشعبية اتخذت طابع الحكاية فحينما نغنى نشعر وكأننا نستمع الى حكاية مغناة أو مكتوبة في الاصل لاجل ان تغنى • فالناظم يبدأ باغنيتـــه وكانه يبدأ بحكاية أو قصة واننا لنشعر ان الطابع القصصي هو الاغلب أو أن ابعاده هي الاوضح والاجلى • وأضع بين يدي القارىء هذا النموذج :

حـــدر على النهران أحـه	يـــورد مهـــرته(١٢)
ما تشـرب بماعـون أحـه	الا بحفنتـــــــــه(١٣)
حدر عـلى النهـران أحـه	يـــورد گيـــاظي(١٤)
وتلاعـب الجزمـات أحـه	ردن البياضـــــي(١٥)

فلا يخفى على القارىء او السامع روح الحكاية المتسربل في أطواء هذه الاغنية التي صور لنا ناظمها فيها محبوبته تصويرا قصصيا رائعا •

ان تتبع حكايات الاغاني وقصصها يضع أيدينا على نماذج كثيرة فيها من الطرافة والمتعة ما يسحر النفوس • وارى ان جهودنا يجب ان تنصرف الى جمع هذه النصوص ووضعها موضع الدراسة ولا سيما بعد ان أخـــذ القدم والنسيان يسري على البقية الباقية من هذه النصوص • ان الاغانـــي تشكل رافدا هاما من روافد تراثنا العظيم لذلك يجب ان نخص هذا الرافد بما يستحقه من اهتمامنا فالاغاني هي معين الاشراق والسرور والتوهـــج الذي لا ينضب ما بقيت نفس انسانية تموج بالحب والاحساس •

---

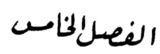
(١٢) حدر : نزل • النهران : جمع نهر عند العامة • المهرة : بنت الفرس •

(١٤) گياظي : نسبة الى القيظ ، والقيظ هو الصيف عند العامة • والشيء المنسوب الى القيظ هو صغار الشياه المولودة في الصيف وتسمى عندهم (خيري) • اي متاخرة •

(١٣) الجفنة : هي ان ياخذ الانسان الماء بكفه •

(١٥) الجزمات : جمع جزمة وهي الحذاء • ردن البياضي : ردن الثوب الذي كانت ترتديه المراة وتكون هذه الردن عادة طويلة •

ويريد الناظم في هذا النص ان يصف المحبوبة فيشبهها بالمهرة وقد نزلت الى النهر تستقي ، وهي لا تشرب باناء وانما تشرب بيدها • لقد نزلت الى النهر لتسقي صغار الشياه المولودة في الصيف وكانت ترتدي ثوبا تلاعب ردنه الطويلة اطراف الحذاء •


الفصل الخامس

لم يدرس واحد من مؤلفينا العراقيين الامثال الشعبية من اية زاوية سواء أكانت أدبية أو اجتماعية أو تاريخية · اذ ان جل اهتمامهم انصبعلى الجمع والتدوين وحسب · ومرحلة الجمع والتدوين ضرورية وملحةبالنسبة لتراث مشتت مطمور تعيش البقية النزرة منه على ألسن الشيوخ · الا ان هذه المرحلة وبالرغم من ضرورتها وأهميتها تبقى مرحلة أولية بما تحمله أبعاد هذه التسمية من معنى · اذ ان مرحلة الدراسة والبحث تأتي بعد مرحلة الجمع والتدوين لذلك تبقى تسميتها بالمرحلة الاولية صحيحة · الا اننا ينبغي ان ننتبه الى نقطة هامة في الموضوع تلك هي اننا لا نقرانتظار استكمال مرحلة الجمع والتدوين حتى نبـــدأ مرحلة الدراسة لان هـذا الانتظار معجز وغير مجد وليس شرطا مثلا ان يظهر كاتب بمجموع لامثال المدن الواقعة على امتداد نهر الفرات الاعلى[1] · لهذا ارى ان مرحلةالدراسة

(١) ظهرت بعض الامثال الشائعة في هذه المناطق في كتاب (هيت في اطارها القـديم والحديث) للسيد رشاد الخطيب الهيتي · وفي كتاب (صور من حياتنا الشعبية) لكاتب هذه السطور ·

للامثال المدونة ومجاميعها كثيرة[٢] يجب ان تبدأ. وعلى ضوء رأينا عما نرى ان تكون الدراسة على الاسس التالية وأبدأها مفترضا ان الامثال وليدة بيئة معينة لها ظلالها الاجتماعية الخاصة ولها ظروفها التي فرضت على الفرد تأثيرا في فكره وعاداته وتقاليده . لذلك لم تكن الامثال الشعبية وليدة ترف ذهني أو ترف اجتماعي وانما كانت جزءا من ذات المجتمع وثقافته اذا آمنا مسبقا بالتأثير البيئي . وعلى هذا يتداخل الاثر التاريخي في الاثر الاجتماعي ليكونا رافدا عظيما في دراسة المثل الشعبي وأكاد أجزم ان عوامل القهر والفقر والمرض والاستغلال هي التي فجرت ينابيع الاحساس في الفرد فجاء المثل تعبيرا عن حالته ومن ثم عن حالة المجموع . على ضوء الناحية التاريخية والاجتماعية والنفسية يمكن ان تؤتي دراسة الامثال بثمار الحقيقة والنبض الانساني والحس الجمالي الرهيف . ولم أعرف في حدود مطالعتي باحثا اتجه هذه الوجهة من الدراسات غير الاستاذ ابراهيم أبو سنة في كتيبه الوجيز (فلسفة المثل الشعبي) . ولنأخذ مجموعة من أمثالنا الشعبية وندرسها على ضوء دعوتنا هذه .

ونبدأ بالمثل (**يكد ابو چزمه وياكل ابو كلاش**)[٣] . ومعناه ان هناك طبقتان تكدح احداهما وتنتفع الاخرى وتسعد احداهما لتشقى الاخرى فثمة استغلال وثمة جشع واحتكار ولعل الاحساس المتفجع بهذا الاستغلال هو الذي دفع الى هذا المثل . فاذن نستطيع من خلال هذا المثل أن نتصور الحالة الاجتماعية التي كان يعيشها الناس ونستطيع أيضا ان نتصور شعور الناس بما هم عليه . ولولا وعيهم لحالة الاستغلال والاحتكار لما أمكن أن ينطلق هذا المثل على ألسنتهم . ومن الامثال (**لو ذكرت الذيب ولفله عسيب**)[٤] . ويقال هذا المثل للذي لم يأخذ الحيطة والحذر من لص معروف أو انسان غادر لئيم او كذاب او غشاش .. الخ . ولو أخذنا المثل على ظاهره لما دل على المعنى الرائع الذي أشرنا اليه . فالانسان مطالب بأن يأخذ للامور أهبتها ولا يقدم على اى عمل يرتجله ارتجالا لان عاقبة التسرع والارتجال معروفة . كذلك عاقبة من يأتمن بلص او يثق بغشاش أو كذاب . واذن كان لهذه القيم الانسانية ادراك ووعي في اذهان العامة وهي تتجدد بتجدد القيم المضادة لها . لهذا نجد العامة تشير الى المثل

---

(٢) من اهم مجاميع الامثال العراقية : مجموعة المرحوم داود الجلبي ومجموعة الشيخ جلال الحنفي ومجموعة الغلامي واخيرا مجموعة الاستاذ عبدالرحمن التكريتي .

(٣) الجزمه والكلاش : نوع من الاحذية . لكني ارى ان الجزمة تحريف للقزمة التي هي من ادوات الحفر . والمثل بهذا الراي يستقيم معناه بصورة اصح مما هو شائع على اللسان الدارج .

(٤) الذيب : الذئب . ولفله : هيا له .

او تنطق به للدلالة على ان الانسان يجب ان يلتزم بالسلوك الفاضل وان يتزود بكل ما من شأنه ان ينجيه من مغبة الوقوع في حبائل اللصوص والمخادعين والكذابين • وللتحذير من اللصوصية وللتأكيد على فضيلة الامانة والنزاهة جاء في الامثال : (**لا ابوك ولا أصبَح مشنوك**)⁽⁵⁾ • فعاقبة اللصوصية واضحة بل وصارمة لذلك تكون قيمة النزاهة والامانة عالية بمقارنتها بالعاقبة التي ينالها السارق كما ينص عليها المثل الشعبي •
ولا يمكن ان يشيع هذا الادراك لحقيقة اللصوصية لولا اعتصام الناس بقيم سلوكية حية وقوية السيطرة والتغلغل وهي قيم تدل على مجتمع متحضر مدرك للفوارق الطبقية وما تزرعه من استغلال واحتكار ومدرك لخطورة الرذائل وضررها على المجتمعات • ولم يقتصر وعي العامة على ادراك حقائق هذه القيم وحسب وانما تعداها الى ادراك قيمة الشورى في الامور وما يمكن ان يقود اليه الانفراد في الرأي خاصة اذا كان الامر لا يخص فردا بذاته وانما يخص جمعا يرتبط بروابط القرابة أو روابط القبيلة التي تؤكد على عموم الخير والشر • الا ان عموم الشر وحسب هو ما يجسد المثل الذي دونا آنفا اخطاره ومساونه • وعليه فالمثل تجسيد لادراك ضرورة اشاعة روح الشورى في الامور خيرها وشرها • وباشاعة هذه الروح ينتهي الاستئثار وتتأصر القوى الخيرة لتحقيق الخير ونبذ الشر والوقوف بوجهه • فالمثل الآنف الذكر يوضح ان الانقياد الاعمى الذي يمكن ان نتصور سيطرته في تلك الفترات المندثرة التي مر بها مجتمعنا قد قام ازاءه وعي يناقضه ويدرك المساوئ التي ينطوي عليها • جاء في الامثال (**اللي ما يحضر عنزه تجيب جدي**) • والمثل على ظاهره لا معنى له لان من طبيعة العنز أن تلد الجدي لكن المعنى الذي ذهب اليه المثل هو ان الذي لا يقف على تصريف اموره بنفسه تنقلب هذه الامور على عكس ما أراد منها وليها • فضرورة الاعتماد على النفس وعدم التواكل وعدم التنصل من المسؤولية هي المعاني التي نعيها من المثل • ومن الامثال الشعبية قولهم (**ما حد يعرفك يا لبن الا اللي بيده مردك**)⁽⁶⁾ • هذا المثل يؤكد على قيمة التجربة بالنسبة للانسان • فخير

(٥) ابوك • اسرق • مشنوك : مشنوق •

(٦) لا يعرف حقيقة اللبن الا الذي مزجه • وصانع الشيء اكثر الناس معرفة بما يصنع •

معلم له وعليها يجب ان يبني حياته اذا ما سعى للنجاح وهدف الى التقدم. وجاء في أمثالهم أيضا : (**الكلب كلب ولو طوقوه بالذهب**) . ومعناه ان الحقيقة الزائفة تبقى زائفة مهما تبهرج الإطار الذي ينتظمها وكذلك النفس الدنيئة الصغيرة تبقى صغيرة تافهة مهما حاول صاحبها صقل مظهـره واخفاء حقارته في ثوب موشى ومموه . ونختتم هذه الامثال بالمثل الآتي : (الجدر ما يتركب الا على ثلاثة مناصب)[7] . ومعناه ان العمل الذي يهدف صاحبه الى انجاحه يجب ان يؤسس على امتن أساس . وكذلك يجب ان يقوم على الاتفاق وهو شرط النجاح المهم في العمل . فالقدر انما يستوي على ثلاثة احجار فاذا فقدت واحدة منها فانما يفقد شرطا اساسيا لا يتـم توازنه الا به . وهكذا يبدو لنا جليا ان المجتمع مدرك لقيمة التجربة .مدرك لاهمية التعاون .. مدرك للزيف المبرقع بأثواب الصدق والاصالة . هذا الادراك الذى يتمثل فيما وضحناه من أمثال هو علامة هامة من علامات الاصالة التي هي سمة مجتمعنا والتى هي نسغ حياته في طـريقه نحو التقـدم والحضارة . ونخلص من هذه الامثال الى عدة حقائق نثبتها فيما يأتي :

١ ـ ان اغلب المعاني التي تلبست بالامثال انما هي معان اجتماعيـة استمدت مادتها مما يشيع في المجتمع من سلبيات سلوكية او قيم منخورة لذلك فان استبعاد النظر الى المجتمع الذى ولد فيه المثل لا يؤدي الى اصابة ونتيجة فى دراسة الامثال .

٢ ـ ان الامثال الشعبية استمدت من البيئات التى نشأت فيها كثيرا من مادتها لذلك كان الرجوع الى بيئة كل مجموعة امرا ضروريا للتوصل الى الحقيقة . ولذلك كان من الصواب دراسة امثال كل بيئة على حدة مع تبيان ما تداخل من أمثال بيئة في أمثال بيئة أخرى . كما ان فكرة دراسة المجتمع من خلال الامثال فكرة جيدة وجديرة بالتحقيق اذا ما آمنا بان الامثـال الشعبية ليست اقوالا قيلت على عواهنها وانما كانت خلاصة الفلسفـة الشعبية . وكانت تحمل من القيم الصحيحة الحية الشيء الكثير . وعلينا ان لا نلتفت الى ما يقال عما تنطوي عليه بعض الامثال من سلبية وتخلف .

---

(٧) الجدر : القدر . المنصب : هو الاثافي التي هي حجارة توضع عليها القدر ثم اذا كان من الحديد سمي منصبا . والجمع المناصب .

ج – ان الامثال الشعبية ثروة ادبية واجتماعية وتاريخية تحمل في أطوائها أقباسا من الحقائق والقيم وهي ليست ترفا ذهنيا قيل لتزجيةوقت أو لقتل فراغ وانما هي وسيلة افرغت العامة بواسطتها ما يجيش في صدرها من قيم وحقائق ومعتقدات ٠ وهي الى هذا كله يمكن ان يستفيد منها دارس اللغة ودارس اللهجات بصورة أخص ٠ لهذا فان دراسة الامثال دراسة متغلغلة بالمجتمع وبالادب وبالتاريخ هي ما ندعو اليه ولعلنا نجد بين قارئينا من يناقش الموضوع معنا مستعرضا وجهة نظره تأييدا او تفنيدا ٠ والقصد أن نساهم في اجلاء الكلف الذى لحق بالتراث الشعبي العراقي وان نسعى الى تثبيت أسس بينة يرتكز عليها الدارسون ٠

الفصل السادس

اتقاء الشر في المعتقد الشعبي

نتيجة لحب البقاء ودفاعا عن النفس واجه الانسان عاديات الزمن وشروره بوسائل كثيرة ومتنوعة . فهو لم يشهر السلاح وحسب مقاوما لانه ادرك ان هنالك شرورا لا تحتاج الى السيف والرمح قدراحتياجها الىاجتهاده ومحاولته في ايجاد او وضع الحلول لشرور عديدة تستهدف حياتهوتستهدف تدمير سعادته وتنغيصها وتحويلها الى اشجان يذبل في ظلها الصفاءوالانسجام ويحيا في ظلها الكدر والقلق . ومحاولة الانسان في اتقاء الشرور محاولة ذكية لانه كان يريد ان يحتال على هذه الشرور بوسائل تنفذ الى عقله لتحول فيما بينه وبين ما يحيق به وكانت تتجه الى نفسه لرفع معنوياتها وتقوية عزائمها لئلا تنهار متهاوية متخاذلة . وهو في هذا الصمود المتماسك لصد القوى المعادية لسعادته وقع صريع الخرافة وهو ملوم في ذلك وغير ملوم . ربما كانت امكانياته محدودة وعي محدودة فعلا . لان طابع البداءة كان يدمغ كل ما حوله من أشياء . لم يكن متخلفا لاننا لا نجد حوله ما يدينه هو حسب . كانت طفولة الحياة لم تزل ترضع من أثداء الكون .

وربما كانت وسائله التي يدور حولها كلامنا متقدمة بالنسبة لعصر الانسان وجيله الاول . ولسنا بناظرين الى عصره وجيله بمنظار عصرنا وجيلنا فذلك عقوق في حقه لا نرضاه . وذلك حتى نربط انفسنا عن الوقوع في وهدته . اذن كانت وسائل اتقاء الشرور التي نعنى بها اساسا نفسه على الموقف الطبيعي الذي يمكن ان يتحدى الانسان مثله في مثل موقعه . وموقفه هذا نابع من ظروف عصره وبيئته . ان امتداد بعض هذه الوسائل عبر الحقب الزمنية الطويلة وبقاء بعضها الى عصرنا الحاضر يعني ان بعضنا لا يزال متقبلا لمثل هذه المعتقدات . ولو ان مد هذا البعض قد انحسر فلم تعد تمثله الا بقايا الناس في الارياف والمدن التي لم يتهيأ لأغلبها نصيب من ثقافة او لان الزمن ادرك هذه البقية التي تعيش يومها بمعتقدات امسها . وقد يسأل سائل : ولماذا هذا البحث في معتقدات الامس ونحن نعتقد بجفاف هذه المعتقدات في حاضرنا الراهن ؟ في هذا السؤال يتجسد موقفنا من التراث الشعبي الذي يؤكد على أن اصالة تراثنا الشعبي يجب ان تبقى متألقة زاهيـــة لا تندثر معالمها ولا يلفها النسيان والاهمال لما للتراث الشعبي من قيمة بالغة تلقي الضوء على حياة الانسان الاولى (عاداته ومعتقداته ونظام حياته) . ولاشك أن محاولة تأكيد الاصالة هذه جديرة بالرعاية بعد ما اتجهت الدراســات الاجتماعية في الوقت الحاضر الى دراسة الانسان دراسة متصلة .

نخلص من هذا الى القول بان ما يؤخذ على هذه الوسائل البدائية وحتى غير المجدية – وان كان تأثيرها النفسي كبيرا على الفرد والمجتمع – لايتعدى ان يمثل الفهم الخاطئ لحقائق عدة منها انبثقت وتثبتت اصالة الموقف الذي التزمه جيلنا الاول . فله فخر التحدي الذي واجه به مجاهيل الحياة متمثلة بالشرور – والامراض وسائر ما تعرض له هادفا تحطيمه وساعيا الى قهره واذلاله . وبامثلة قليلة يمكننا استعراضها توضح ما ذهبت اليه .

فمن الشرور التي كان عقل المجتمع يتحصن ضدها ويقاومها ويهدف الى جلائها وسبر غورها ورفع أذاها .. من هذه الشرور شر الاصابة بالعين . وهــذا الشر لا يقف عند حد فقد يصاب بالعين من أنعم الله عليه مالا او جمالا او صحة وعافية او نال شيئا من فضائل الحياة وكرائم الاموال . هذه النعم تستجلب عين الحاسد وتستلفت عين المنهوم الطامع الذي لا يصد جشعــه

قدر من خلق او دين · حينئذ ينطلق هذا الحاسد متطلعا الى انقاص احدى هذه النعم بل وزواليا · فاذا اجتمعت الصدفة واصيب الرجل الميســـور صاحب النعمة باذى او بخسارة او مرض · قال الناس انه أصيب بالعين ·· عين الحسد والشر · فلماذا يا ترى يلجأ الناس الى هذا التأويل ؟ هل جهل الناس حقيقة ما ينال الانسان في مسيرة حياته سلبا وايجابا ؟ لكن العقل يريد أن يعرف السبب وكيف يعرفه ؟ يعرفه بوسيلة ساذجة بل ونقول متهافتة اذ تعمد احدى قريبات الرجل الميسور والمحظـــوظ المنكود ـ اذا أحسنت التعبير ـ تعمد الى تذويب الرصاص وصبه وهو سائل على المكنسة حينئذ يتخذ اشكالا متعددة يمكن ان تميز على ضوئها شخصية من أصـــاب قريبيا بالعين وأودى به الى تحطيم نعمته او مرضه · هي وسيلة بدائية كما قلنا لكنيا تمثل موقفا بعيدا عن الاستسلام للشرور ·

ومن الوسائل الاخرى الوسيلة التي اتخذها الانســـان لطرد الشرور المتمثلة بالشياطين والارواح الغيبية التى تحمل الاذى للانسان · وسيـــلة وضع شيء مقابل هذا الشيطان أو هذه الروح لصده وابطال اذاه وشروره· كان يزرع صاحب البيت شجرة معلومة هي شجرة الدفلى · يزرعيا في بيته أو يقتطع من اغصانيا ويحزميا على شكل باقات يعلقها في الاماكن البارزة· وبيذه الوسيلة يعتقد ان الشرور التى مصدرها هذه الارواح الغريبة سوف لن يبقى ليا الاثر والخطر ·

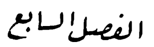
والحجاب من الوسائل الشائعة لصد الشر وايقاف خطره · وهو ليس وسيلة شائعة وحسب بل ان فعله عند العامة يتجاوز فعل السحر · فيــو الصديق الامين والحارس المخلص والمدافع القوي عن أغلب ما يصيب الانسان من شر وحسد وبغض ومرض · والحجاب قطعة من الجلد مربعة الشكـــل تعمل على شكل كيس وبيا من احدى الجهات قطعة صغيرة يعلق منيـــا وتوضع داخل الحجاب ورقة يقرأ عليها السيد أو يكتب فيها كتابات غـير معروفة وبضع آيات من القرآن الكريم · ويستعمل الحجاب لاغراض مختلفة ولكل الامراض تقريبا حتى ان الطفل الذي يطيل الصراخ يوضع له حجاب· وكذلك تضع المرأة حجابا لطفلها اذا كان وسيما صحيح الجسم ليقيه مـــن

(١) حذاك : اصلها حاذاك : هنا جاءت بمعنى جاورك ·

شر العين التى تصيب ومن شر الحسود الذى لا يسود ٠ ولذلك فهي تطمئن بعض الاطمئنان حينما تسمع المرأة التى ترى طفلها تقول (محروس بالله من عيني وعين خلق الله ومن عين أمك واباك ومن عين جار حـذاك)[١] ٠ والحجاب كما يتضح له أثر المخدر في عقول العامة وسكنة الارياف اذ تعتقد المرأة ان حمل هذه الرقية هى سبيل الشفاء الوحيد وبها تتقرب زلفى الى المقامات العليا التى تحميها من كل الشرور التى تعترض كمدية حادة خطوط السعادة المستقيمة وتشويه نقاء الحياة الصافية السعيدة ٠ ان الحجـاب وسيلة تقرب ٠٠ وسيلة تكون هي الواسطة نحو طلب سعادة دنيويةخالية من كل منغص وحياة نقية لا يشوبها كدر ولا شجن ٠ ولا يمكننا ان نعلل سبب هذا الالتصاق العجيب بالرقى لكنه يمكننا ان نعزوه الى الاحتـــرام الشديد والايمان القوى باصحاب الكرامات الذين ترجى شفاعتهم وتوسطهم٠ فلهؤلاء في نفوس الناس مقام عال واحترام شديد ومكانة سامية ٠ وكماقلنا في بدء المقال : ان شر الاصابة بالعين من الشرور التى كانت تؤرق النـاس لذلك تعددت وسائل اتقائها والخلاص منها ٠ ومن هذه الوسائل تعليـق سن الحيوان ٠ وهي عادة شائعة واكثر ما يعلق سن الذئب بعد أن يصاغ الذهب أو الفضة حول وســطه ٠ وتعلق معه خرزتان احدهما (ودعة) والاخرى (خضرمة) ٠ ويحتل سن الذئب مكانه على صدر الطفل أو يعلق بشعر رأسه من الامام أو من أحد الجانبين ٠ ولو جاز لنا ان نتساءل عن قيمة تعليق سن الذئب على صدر طفل مريض لما أمكننا ان نجيب على هذا التساؤل بأكثر من القول بان العامة لجأت الى هذه الوسيلة لاعتقادها بـأن شجاعة الذئب وكونه حيوانا مفترسا كفيلة بطرد الاذى ودرأ الخطر والا فاى نفع في سن الذئب أو أى جمال فيه حتى يحاط بهـــذه الهالة من الاهمية ؟ اننا نلمس وبكل وضوح سذاجة هذه الوسائل ٠ ولنتخذ مثلا آخر لا تقل سذاجته عما ذكرنا ٠ فعندما تفيض مياه النهر وتصل درجة الخطوة يعمـد الناس الى جمع قطع الخشب والحشائش ويضعونها فوق خشبة كبيرة ثم يوقدون النار في الحشائش ويتركونها تجري مع تيار المياه٠ وبهذهالوسيلة يعتقدون ان النار ستكون سببا لدرء خطر الفيضان ونقص المياه ٠

ولاتقاء شرور البعاد وآلام الفراق وصدها وتقريب القلوب واعمارهـا بالحب والسعادة والفرح تعمد المرأة الى الحصى السلطاني لتعليقه فياعناقهن٠ فهو خير رقية لتقريب القلوب النافرة واحلال السعادة بدل الشقاء والوئام محل الخصام ٠ وقبل ان انتهي من كتابة الكلمة الاخيرة في هذه المقالـة الوجيزة حول وسائل اتقاء الشرور في معتقدات العامة اعود لتأكيد ما قلته في صدر هذه المقالة ٠ ان هذه الوسائل بدائية وساذجة بمنظارنا اليوم الا اننا لا يمكن ان ننكر ان هذه الوسائلكانت تفعل فعلها في زمن مضىوانقضى٠

ولا يمكن ان ننكر ان كثرة كاثرة لا زالت اليوم تعيش بذهنية الماضي وتعتقد بنفع هذه الوسائل وعدم قصورها • فهي تعيش حاضرها بعقل ماضيها لذلك كان من الواجب الكشف عن هذه المعتقدات ومحاولة القاء الضوء عليها وتوجيه الدراسة نحوها • فلهذه المعتقدات جذور غائرة في اعماق النفوس ذائبة في احلامهم • بل هي بعيدة التأثير حتى في نفوس الكثير من المتعلمين الذين يعتقدون انهم خلفوها وراءهم فيما خلفوه من معطيات الجيل الماضي • الا ان الاحساس بها لا يلبث ان يقوم • ولا اعتقد ان الباحث الفولكلوري واصحاب البحث الاجتماعي سينظرون الى هذا الموضوع نظرة ريب • فمن صميم دائرة بحثهم واهتمامهم سيكون البحث عن المعتقد الشعبي وما يحفل به وما يصدر عنه •


الفصل السابع



حينما شغلني التفكير في هذا الموضوع تزاحمت الهواجس والاسئلة في ذهني وخيل الي انني سوف أثير القارىء بما اكتبه في هذه المقالة عن (العدودة) وهو ما يؤلم النفس التي سوف يؤول بها العمر طال أو قصر الى نهاية واضحة مسلم بها . فتذبل الاماني وتجف عروق الرغبات وتذوي شجرة الحياة . ولكن ذلك هو المصير . ولنطب نفسا اذا حكم القضاء كما يقول الامام الشافعي رحمه الله .

الجذر التاريخي لأدب النواح

لو أردنا تقصي الجذر التاريخي لادب النواح على الميت لوجدنا بعض اللمحات التى يمكن ان تغنينا في ربط الحاضر بالماضى بهذا الخيط الرهيف الذى يوصل بين ماض لامع مضيء وحاضر يستمد ازدهاره من ذلك الماضي الذي يسانده في ايجاد بناء شامخ غني بالدلالات والانفعالات جياش بالخواطر والجوانح .

ونفترض ان أدب النواح موجود منذ العصر الجاهلي ما دمنا وجدنا اشارات الى عوّاد المجالس التي تقام بعد الوفاة . يقول طرفة بن العبد في معلقته الشهيرة :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم احفل متى قام عودي

(ويمثل النوح الجاهلي ما قالته امرأة ترثي أخاها مرة . وتذكرانه خير أخ . وخير من أكرم الضيف . وانه كان يقود الخيل . ويلبس الدروع الملساء للقتال ، وتدعو لقبره ان يبطل عليه المطر فتنبت عنده الرياحين والزهور)[1] قالت :

يا مرَّ يا خير أخ نازعتُ دَرَّ الحلمه
يا خير من أوقد للا أضياف نارا جحمه
يا جالب الخيل الى ال خيل تعادي إضمه
يا قائد الخيل ومجتاب الدلاص الدرمه
سيفك لا يشقى به الا العسير السنمه
جاد على قبرك غيث من سماء رزمه
ينبت نورا أرجا جرجاره والينمه

(وعندما توفي سعد بن معاذ ، واحتمل الناس نعشه . خرجت أمه تنوح عليه وتبكيه ، وتذكر صرامته وقوته ومجده وفروسيته وغناءه وقتله الابطال)[2]

ويل ام سعدٍ سعدا صرامة وَحدّا
وسؤددا ومجدا وفارسا مُعدّا
سُدّ به مَسَدّا يعدّ هامة قدّا

وبكت سلامة القس يزيد بن عبدالملك وناحت عليه :

لا تلمنا ان خشعنا او هممنا بخشوع
قد لعمري بتّ ليلي كأخي الداء الوجيع
كلما أبصرتُ ربعا خاليا فاضت دموعي
قد خلا من سيّدٍ كان لنا غير مضيع

وندبته أيضا بمرثية اعتبرها السامعون من أحسن ما قيل فلا اوجع ولا أشجى فلقد أبكت العيون وأحرقت القلوب وأفتنت الاسماع[3] وتلك المرثية هي :ـ

---

(١) الشعر الشعبي العربي ، حسين نصار ، دار العلم بالقاهرة ١٩٦٢ ، ص ٨٩ .
(٢) نفس المصدر ص ٨٩ .
(٣) الاغاني ، أبو الفرج الاصفهاني ، سلسلة تراثنا ، القاهرة ج٨ ص ٣٤٧ .

يا صاحبَ القبر الغريب	بالشام في طرف الكثيبِ
بالشام بين صفائحٍ	صُمٍّ تُرَصّفُ بالجَبُوبِ
لما سمعتُ انينه	وبكاءه عند المغيبِ
اقبلتُ أطلب طِبّه	والداءُ يُعضِلُ بالطبيب

واذا انتقلنا الى العصر الحاضر لرأينا العدودة تقليد شائع لا تزال جدوره باقية الى اليوم في الارياف والمدن الصغيرة . فما ان تتم المعادة عقب انتهاء مراسيم الدفن حتى يأتي دور العدّادة تفرغ ما جمعته في صدرها من مقطعات قصيرة تتفجر حزنا وأسى . تقرأها بصوت سجي يثير حماس النساء وينتزع عبراتهن ويسيل دموعهن . وتختلف مضامين العدودات ، فالعدودة التي تقال في معادة الرجل غير العدودة التي تقال في معادة المرأة . والعدودة التي تقال في الشاب غير العدودة التي تقال في المسن . وعدودة الشابه غير عدودة العجوز . وهناك عدودة للكرم واخرى للشجاعة وثالثة للغنى والسيرة المحمودة والخلق الفاضل . ولا يقتصر بكاء المرأة على الميت فقد تتذكر المرأة عزيزا فقدته وقد تندب حظها التعيس ونصيبها العاثر في الحياة . وقد تبكي قسمه اختها التي لم تحظ بالزوج الصالح والابن البار . وهكذا يتفاوت غرض العدودة بتفاوت المقام الذي تقال فيه . كذلك فان المرأة تلجأ الى العدودة حينما تضيق بها الحياه وتدلهم امامها الايام دون حريتها وراحتها وسعادتها الابواب . فتنطلق العدودة على لسانها بحزن عميق ودمع سخين يفجر الآلام المكبوتة ويصعّد الزفرات الحارة وكأن كل فجائع الدنيا تصب في هذا القلب المكتوي بشجن أبدي ليس في ليله شمعه أمل ولا اضاءة نور ولا بارقة فرح . ويبدو ان العدودة ما هي الا منفذ لهذه النفسية التي وقعت في حبائلها المرأة طوال عمرها . وهي تلجأ الى هذا المنفذ كلما وجدت الى ذلك محفزا وداعيا . فعند زيارتها للقبور نجدها تعدد وعند المرض نجدها تعدد وكذلك تفعل في ايام الاعياد لا سيما يوم (الزيارة) وهو ثاني أيام العيد حيث يخصص لزيارة المقابر . وكذلك تفعل أيضا كلما وجدت الى العد مناسبة .

وفن العد خاص بالمرأة ، ولا يلجأ اليه الرجل مطلقا . وقد ظل هذا الفن يعيش في صدر المرأة لا تقوله الا بهذه المناسبات . ولعل من الصعب على من يريد ان يدون العدودات أن يلجأ عدادة على ان تقرأ له وكأن العدودة تحتبس في صدرها . وكأن الكلام يموت على شفتيها . ولكن ما ان تقام المعادة وتجتمع النسوة نادبات معولات حتى تبدأ العدادة بالعد بصوت مشوب بالحرقة والتفجع وكأن كل ينابيع الالم وعيون الاسى وهي التي تفجر

هذه الكلمات الجياشة بكل معاني الفقد السخينة وكل معاني العذاب والفراق والرحيل · ولنقرأ بعضا مما استطعنا تدوينه :

يا دار وين العمروكِ[٤]
بالعز والهيبة بنوكِ[٥]
ويا دار خلوني وخلوكِ[٦]

يا دار وين أهلج ما يلفون[٧]
وراحوا على البيطار يحذون[٨]
يجون السنه لو ما يجون[٩]

فأين يا دار ·· ؟ أين الذين بنوكِ في عزهم وهيبتهم واين شط بهم المزار وسارت بهم قافلة الايام ؟ عجبا لهم يا دار ! خبرينا عنهم يا دار يأتون او لا يأتون ؟

علوا انتلاگا بدرب مي[١٠]
نزت الگرب ونگعد شوي[١١]

امنيتنا ان نتلاقى ولو في دربنا الى الاستسقاء فنضع قرب الماء جانبا ونقعد برهة نتحدث ·

حمامج برد وانتِ تغسلين[١٢]
عجب يالحبيبة نايمه بطين[١٣]
جبنالج وليدج ·· ما تگعدين[١٤]
جبنالج هدومج ما تلبسين[١٥]

لماذا أيتها الحبيبة تباطئت في غسيلك ؟ ولماذا تنامين هكذا تحت

---

(٤) وين : اين · العمروك : الذين عمروك ·
(٥) يعني عمروها ايام عزهم وهيبتهم ومجدهم ·
(٦) خلوني وخلوك : تركوني وتركوك ·
(٧) اهلج : اهلك · يلفون : ياتون · وتقول العامة : لفى فلان على بيت فلان بمعنى تردد ·
(٨) يعني انهم ذهبوا الى البيطار يحذون افراسهم ·
(٩) ياتون هذه السنة ام لا ياتون ·
(١٠) علوا : امنيتي · انتلاگا : نتلاقى ·
(١١) نزت : نرمي · وهنا جاءت بمعنى نضع ، نگعد شوي : نقعد قليلا ·
(١٢) حمامج : حمامك ·
(١٣) نايمة : نائمة ·
(١٤) وليدج : وليدك ·
(١٥) هدومج : ملابسك ·

التراب ؟ هذه ملابسك قد أتيناك بها وهذا ولدك ايضا فاستيقظي لتزينه ٠

مسّت تلوب وما عرفنـا دواهـا(١٦)
شـمل الحبايب مروّح وياهـا(١٧)
يبچن الجاوروها وگعـدوا وياها(١٨)

أمست ليلتيا تتألم ولم نعرف دواء لمرضها ٠ وقد اجتمع شمل حبايبها عندها فهي محبوبة اثيرة عندهن ولهذا فهن يبكينها ويتألمن لفراقها٠وكذلك جاراتها وكل من جالسها ٠

شـجرة حبايبنا هوت وشـجاها(١٩)
يلوگلها الاطلس على مگفاهـا(٢٠)
يبچـن حبايبهـا على فرگاهـا(٢١)

في هذه العدودة نرى مبلغ التأثر الضارب في أعماق هذه النفس المكتوية بفقد العزيزة التى كانت من خيرة الحبايب حسنا وجمالا ولهذا فهن يبكينها ويتألمن لفراقها ٠

يا حبيبـة وبعد الجنين البرضـع
جيت لبيتچ كلهن ما دبرن تدبيرچ(٢٢)
نامي على چتـفي اكسـري نعاسچ(٢٣)

أيتها الحبيبة كيف تتركين هذا الرضيع ولم يشتد عوده بعد ؟ لقـد رضعتيه فاحرزت على غيرك سبقا ٠ فان كان النعاس قد غلبك فنامي على كتفي ٠ ولكنها الرقدة الابدية ٠

ومن العدودات الخاصة بالرجال الكرماء :

علگوا للخيل من حنطة وشـعير(٢٤)
وردوهـا الخيـل لمي الغـدير

---

(١٦) مست : امست ٠ تلوب : تتالم ٠ دواها : دواءها ٠
(١٧) مروح : تقول العامة : روح وروحوا : بمعنى جاء وجاءوا
(١٨) يبچن : يبكين ٠ الجاوروها : الذين جاوروها ٠
(١٩) شجاها : اصابها ٠
(٢٠) الاطلس : الثوب الذي لونه الطلسة وهي غبار الى سواد ٠ مگفاها : تقول العامة اكفى للرجل بمعنى ادار ظهره ٠ وهنا كان الثوب يبرز جماله اكثر اذا ادارت المراة ظهرها ٠
(٢١) فرگاها : فراقها ٠
(٢٢) جيت : اتيت ٠ لبيتچ : الى بيتك ٠ تدبيرچ : تدبيرك ٠
(٢٣) چتفي : كتفي ٠ نعاسچ : نعاسك ٠
(٢٤) علگوا : تاتي هنا بمعنى اعلفوا ٠

بالحيف ابو (٠٠٠) متوسد الصخير[٢٥]
هلهلوا للخيل الفت على العـايلات[٢٦]

أكرموا الفرسان الذين وفدوا على الرجل الكريم وقدموا لخيليم الحنطة والشعير واسقوها من ماء الغدير ٠ وعلبلوا واهزجوا للوافدين اكراما لهم وحبـا بهـم ٠

على أهل المرتبـــة والسيط عالي[٢٧]
عمد بلـوط بيت الشيـــخ عالي
حلف دهـن المـزابد ما يحطــه[٢٨]
والا من الظــرف صـــافي زلالي[٢٩]

ان ميتكم عريق المحتد عالي النسب كريم معطاء ٠ شاع صيتهوأبوابه مفتوحة للضيف وهو لا يرضى ان يقدم لضيفه من دهن المزابد فنراه يعمد الى الدهن الصافي المخزون ٠

على أهل النخيل ويا دوالي حني
أهل الگرايا وين راحوا ٠٠٠ عني[٣٠]
خلّو نخيلهـم سايبـه ٠٠ مني

حني أيتها النواعير على هؤلاء الكرام الاغنياء أصحاب النخيل والاملاك وانت أيتها الكروم قد ذهب أصحابك وأمسيت خلاء تحزنين من يمر بك وكنت عامرة باصحابك وأهليك ٠

يا مرحبـــا جتــــني مشـــيحه[٣١]
وعلى خالهـــا ذابـح ذبيحـــه
يا خالـــي تريد أمـي ســـهمها[٣٢]

جاءت مسرعة حتى لكن خالها قد أقام وليمة ٠ وجاءت تطالببنصيب أمها ٠ وهذه عادته حينما كان حيا ٠ أما الان فان النادبات يندبنه وشتان ما بين اليوم والبارحة ٠

---

(٢٥) بالحيف : كلمة تقال لاظهار التاسف على شيء ٠ ويوضع ما بين القوسين اسم الميت او كنيته ٠ الصخير : تعني هنا اللحد ٠
(٢٦) العايلات : العائلات ٠
(٢٧) السيط : الذكر والشهرة والكلمة محرفة من أصلها (الصيت) ٠
(٢٨) يحطه : يضعه ٠ وهنا تاتي بمعنى ما يقدمه للضيوف ٠
(٢٩) الظرف : وعاء من الجلد يخزن فيه الدهن ٠
(٣٠) الگرايا : جمع گرية وهي القرية ٠
(٣١) مشيحة : مسرعة ٠
(٣٢) سهمها : حصتها ٠

واذا القينا نظرة على ما قدمنا من نماذج العدودات أمكننا ان ندرك ان هذه المقطعات المنظومة تملك بعض صفات الاغنية الشعبية القديمة من حيث البناء ٠ فهي تميل الى أن تكون متساوية النغم متوافرة الموسيقى مسجوعة الاواخر ٠ كما يمكننا ان نلاحظ ان الشطر الاخير منها يحمل خلاصة ما يراد ان يقال في مدح الميت وهذا الشطر يسمى (قفل العدودة) قد يبقى هذا القفل مفتوحا لتضيف اليه العدادة ما تشاء من منظومها ٠ ولهذه الاسباب يمكنني ان أطرح خاطرا جديدا فيما يخص (العدودة) ٠ هذ الخاطر هو اعتباري العدودة قد قامت مقام الشعر عند المرأة في الريف ٠ فصورت الانفعالات التي تجيش في صدرها وعبرت بكل ما لها من امكانيات ـ ولو أنها محدودة ـ عن خوالجها ولواعجها وزفرات نفسها المتحرفة المتأسية ٠ وبعد فهل يمكننا أن ندخل هذا النظم النسوي الشعبي ضمن دائرة الادب الشعبي : قد لا أغلو في القول اذا أجبت بنعم وذلك لجملة أسباب أهمها ان هذا المنظوم الشعبي هو تعبير عن عواطف وأحاسيس وانفعالات مما تجيش به النفس حينما تثيرها دواعي الشجن وغصص الالم وموخزات الاسى ٠ وهذا التعبير يتوسل الى تحقيق هدفه باسلوب منغم موزون الى حد ما ومسجوع الاواخر ٠ ثم انه لا يتأتى لكل امرأة ٠ فله ناظمات حافظات اشتهرن بالعد دون غيرهن من النسوة ٠ والامر بعد هذا يحتاج الى بحث والى نقاش وارجو أن تستجيب الاقلام الى بحث هذا الموضوع البكر الذى لم يحرث بعد ٠

الفصل الثامن

من مصادر الثقافة في الريف والبادية

قد يستغرب القارىء عنوان هذه المقالة ويتساءل : وهل توجد ثقافة شعبية وأخرى غير شعبية ؟ وله الحق اذ قد يخدع العنوان · وقد يثير استغراب من لا يقرأ غير العناوين ·

هذه المقالة تبحث في بعض المصادر الاولى التى زودت رجل الريف والبادية ببعض المعارف وخاصة المعارف المتصلة بالادب من شعر وقصص وأخبار وحكايات اضافة الى ما زودته به من معرفة بالحياة التي تحيطه وما تتطلبه أمورها من معالجة ·فان تجسد الانسان في هذه الارجاءتمثالا للجهل وموطنا للتأخر والبدائية فاحرى بهذا التجسيد ان يتهاوى ·وأحرى بهذا الانسان أن يظل مثالا للنقاوة والبراءة والطيبة · فقد أمتلك حظا وافرا ألهمته به الطبيعة والتجربة · وخسر حظا بل لنقل خسر فرصه لم تسنح له ولم تتح له · وهو في هذا غير ملوم · ونبحث فى الخط الاول الذى أصابه وانتزعه من كبد الحياة عصارة يمكن ان نسميها (ثقافة)

مجلزا . ما دامت عصب حياته ورحيقها الذى به عاش يكافح الزمن بشموح الانسان الاصيل وبقوة النفس الانسانية النابتة على أرض نقية مباركة .
فلقد كانت لرجل الريف ثقافة قبسها من مصادر عديدة وان كان في الاعم الاغلب لا يعرف من أمر القراءة والكتابة شيئا ولم تضيء له المدرسة ظلام حياته الدامس . لكنه عرف في الحياة مدرسة سداها التجربة ولحمتها موروثات من عادات وتقاليد وقيم ومعتقدات وشعائر هى فى مجموعها نابعة من صميم حياته وموروثة من أجيال طيبة المحتد كريمة العرق أصيلة الهوى . وعرف من الحياة شدائدها وارتضع من أفاويقها متعلما ومسترشدا . وهل الثقافة في بعض معانيها الا (ثمرة المعايشة الحية التلقائية في اغلب الاحيان وهي ثمرة التمرس بالحياة ، والتفاعل مع تجاربها وخبراتها المختلفة) (موسوعة الهلال الاشتراكية ص ١٦٣) . ونحاول الان ان نتعرف على بعض مصادر الثقافة الشعبية أو أن نتعرف على جزء من المحصلة الثقافية لرجل الريف عبر مسيرته في الحياة . ونبدأ بمصدر مهم من مصادر الثقافة الشعبية هذا المصدر هو (الديوان) . والديوان كما يمكن ان نصفه هو حُجْرَةٌ طويلة واسعة يبتنيها الرجل السائد في قومه . أو رئيس العشيرة والرجل المضياف . ويبقى الديوان مفتوحا لاستقبال الناس على اختلافهم غير مقصور على رجل دون آخر . وصاحب الديوان فى خدمة الضيوف مهما بلغ عددهم . بل انه ليفاخر بهم كلما كثر عددهم وازداد . وعن هذا الامر تدور اخبار وحكايات تخرج فيأحيان كثيرة الى حدود المبالغة ولكنها حتى فى هذه الحالة لا يمكن ان نصفها الا بأنها سمة الكرم وسمة الضيافة ورحابة الصدر في الانسان العربي .
وصاحب الديوان رجل مضياف لا يعجزه ان ينحر آخر شاة يملكها لضيفه. وهو في هذا المجال حاتمي النفس . وهل حاتم الا منه وهو من حاتم ؟ والديوان مجلس أدب ومجتمع قوم يتطارحون فيه شؤون حياتهم وأمورها . ويتدارسون فيه مشاكل الناس ما عظم منها وما صغر . ويتوسط الديوان عادة موقد النار وفيه تنصب دلال القهوة التي تحتل مكانتها الكبيرة باعتبارها احدى مقومات الديوان بمعناه المعروف لدى عامة الناس. والديوان اضافة الى هذا الاعتبار سمة الكرم والسيادة عند الشيوخ . هذا هو الديوان الذى نتكلم عنه الان باعتباره مصدرا من مصادر ثقافة رجل الريف والبادية وهو يعني اليه (رجل الريف والبادية) الشيء الكثير باعتباره المنتدى الذى يجتمع فيه بقومه ويتزود منه بالرأى ويستمع فيه الى القصص الشعبي والحكايات الشعبية وأحداث القبائل الاخرى . وفيه أيضا يطرح مشكلته ان كانت عنده ثمة مشكلة . وهو بالنسبة له أخيرا خير مكان للسمر واللهو وقضاء الوقت لانه يجمع الى هذه الامور شؤون حياتهم وخاصة

ما يتطلب منها مشاركة الجماعة برأيها وبتكاتفها كحل مشاكل المنازعات وكافة القضايا الاخرى المعقدة . وما تتطلبه من تسيير وتقويم وتوجيه . ولا أغلو اذا سميته بـ (المدرسة) لانه حقا مدرسة اذا ما تجاوزنا بعض ما تعنيه كلمة (مدرسة) . وعلى هذا الاساس أثر الديوان تأثيرا كبيرا في بناء شخصية الرجل الريفي وساهم في تطويره وتنويره وتعريفه ببعض ما له صلة بحياته . ومصدر آخر يرتبط بالديوان بشكل او باخر ذلك هو (العارفة) . والعارفة هو الشخص المحنك الذي بلغت خبراته حدا يستطيع معه ان يحل المشاكل ويفصل في حقوق الناس . ويتصف الى جانب الخبرة بسعة الافق ورحابة الصدر والاطلاع على الحوادث الكثيرة او المشاركة فيها . وهو محترم لدرجة كبيرة بين قومه وعشيرته ولكلمته حصانة ولرأيه احترام . وعليه يعتمدون . ولا يبلغ الرجل منهم هذه المكانة بسهولة . وانما يتبوؤها من جمع الى تلك الصفات التي ذكرناها آنفا حسن الاجتهاد والرزانة والحلم والتعقل . ونجد مادة غزيرة حول شخصية العارفة تدور عليه في اطار مهمته وأغلبها حكايات شعبية تتوقف عقدتها على شخصيته وما يمكن ان يقدمه في مجالها . وهذه ظاهرة لم يلتفت اليها أحد من دارسي الادب الشعبي . والعارفة في هذا الاطار يلعب دورا كبيرا في حياة رجل الريف والبادية . وأكثر ما يفتي به له قوة الحجة التي لها على الناس القبول . واذا ما انتهت مهمة العارفة في مجاله الرئيسي الذى يفصل فيه بين الناس ويحكم رأيه في القضايا العامة التي يمر بها القوم فانه يلعب دورا اخر في مجال اخر هو مجال التثقيف وابلاغ معارفه الى الناس . فهو مستشار ومعلم في آن واحد . ولهذا أصبحت له اهمية كبيرة لاتوازيها في الاهمية الا شخصية رئيس القبيلة . وحول شخصية العارفة دارت في الادب الشعبي حكايات كثيرة لها ما للحكاية الشعبية من أطر ومقومات . وهذه الحكايات لو تتبعناها في ضوء دراسة هادفة لاستطعنا ان نجمع منها قدرا يمكن ان نطمئن الى تسميته بالادب الشعبي . فهو أدب شعبي حقا في مضمونه وفي أهدافه . أدب شعبي صيم نابت في وسط جماعات لها قيمها ومعتقداتها . وادب شعبي له في مغزاه هدف التعبير عن مطامح ورؤى وآلام وآمال هذه الجماعات . وشخصية العارفة في هذه الحكايات لها أبعاد لا اغلو اذا ما قلت انها (أسطورية) . لانها في الواقع تستفيد كثيرا من مقومات الشخصية الاسطورية التي تتوقف عليها في السير والحكايات الشعبية مهمة الخلاص . الخلاص من المآزق التي تقع فيها وكأنها مهيأة لهذه المهمة وكأنها مرسومة لمثل هذه المآزق . ولا يبعد ان يكون هذا التأثير واقعا ما دامت السير والحكايات الشعبية قد طرقت الاسماع ودارت بها الالسنة فى مدارات بعيدة في كل المجتمعات . فالبطل في السيرة

الشعبية منقذ لانه فيها (هو الخالق للقدر وللمصير ، وهو فوق الطبيعي والممكن ، ومع ذلك فالبطل الاسطوري يحكي نزوع الانسان الى المعرفة ، والكشف عن المجهول واستئناس المتوحش والمتحكم في العناصر ، والتغلب على الزمان وعلى المكان)[1] · وهذا هو مقام العارفة في الحكاية الشعبية ·الا ان الاختلاف ينبع من كون بطل السيرة الشعبية ـ على الصورة التيوصلتنا ـ يخرج بافعاله المدهشة عن حدود التصور · وهو (يتوسل احيانا بما فوق الواقع وما فوق الطبيعي · وهو ما دام على الخير فالاولياء يعينونه بكرامتهم وينقذونه من المآزق · ويطوون له المكان والزمان ، ويفكونه من الاسر ، ويكشفون عنه المحجوب ، وقد يتوسل بادوات عجيبة لها قوى خارقة كالاسلحة الخاصة والدواب الخاصة وبسط الريح ، وما الى هذا بسبيل)[2] ·

أما العارفة وان كان له نفس الدور وعليه يتوقف انفراج المآزقومهمة الخلاص الا انه واقعي الشخصية ، موجود بين الجماعات بعيد عنالخيال· والحكاية التي تدور حوله والتى يلعب فيها الدور الاول والاخير واقعية تحدث فعلا · الا اننا لا يمكن ان نبعد عنها صفة المبالغة التي هي في أساسها من بنات الخيال · وهنا يأتي دور العقل الشعبي ليستفيد من مزايا السيرة الشعبية والاسطورة · على ان المزيد من التفصيل فى هذا الامر يخرج بنا عن حدود هذه المقالة · ولعلني أعود الى الموضوع في مقالة أخرى ·

لنقرأ هاتين الحكايتين التي توقف الخلاص فيها على شخصية العارفة وعلى اجتهاده · فهذه امرأة عاقر خطفت فى غفلة طفل امرأة اخرى وتصنعت بفعل الامهات وكابدت في ان تبدو أما حقيقية · وأعيا الامر أم الطفل الحقيقية وبحثت عن طفلها حتى أودى بها البحث الى طفلها والى خاطفته فتشبثت وبذلت جهد الام الدامي لانتزاع طفلها من خاطفته · الا ان الاولى

---

(١) البطولة في الادب الشعبي ، د· عبدالحميد يونس ، الاداب العدد الاول السنة السابعة ١٩٥٩ ص ٨ ·

(٢) نفس المصدر ص ١١ ·

كانت أكثر منها دهاء وسعة حيلة ٠ وتعقدت الامور حتى وصلت الى حد اثارة مذبحة بين عشيرتي الام والخاطفة ٠ ولم يكن من الممكن ان تحل الامور الا برأي ناصح ومشورة عارفة محنك يفض برأيه الصواب مايمكن أن يقوم بسبب هذه المشكلة ٠ وجيء بالمرأتين الى العارفة وكانت كل واحدة تبدي ما عندها من حجج لاثبات امومتها للطفل واحتار العارفة فيما بدا له الامر ٠ الا ان بارقة ذكائه ما لبثت ان حسمت الامور واعادت الصواب الى مكانه ٠ لقد هدته حيلته وسعة تفكيره الى التدبير الآتي : لقد وجه كلامه الى المرأتين قائلا : بما ان احداكن لا تريد ان تبوح بالحقيقة وبما ان الامر سيؤدي الى مذبحة فانني حسما للمنازعات وفضا للمشاكل سآمر بقتل الطفل بدلا من ان تقتتل العشيرتان فيما بينها ٠٠ ولم تدعه الام الحقيقية يكمل كلامه حتى صرخت صرخة من الاعماق ارتج لها شعور من كان حاضرا بينما وقفت الام المزيفة الكاذبة مبهوتة تحملق في وجه العارفة ٠ وكان ان انفرجت الازمة وانكشف وجه الام الكاذبة فخرجت خاسئة مدحورة ٠

والحكاية الثانية هي حكاية عن طفل كان يلهو قرب بيته منشغلا بعالمه وصادف ان جاء فارس يمتطي صهوة جواده الذى يسابق به الريح ٠ فقفز من فوق الصبي دون ان يفطن له ٠ فحدث ان توفي الطفل ٠ ولما رأى الوالد ما حل بطفله لحق بالفارس ٠ الا ان الفارس انكر التهمة وأصر على أنه بريء من قتل الطفل٠ فحدثت مشادة بين والد الطفل والفارس ثم رفعت القضية الى العارفة ليقضي فيها ٠ فلجأ العارفة الى الطريقة التالية لمعرفة عما اذا كان الفارس هو السبب في موت الطفل ام لا ٠طلب أن يؤتى له بقدر فيه حليب ٠ وطلب ان يوضع الحليب على النار ويغلي وكان كلما أرادوا انزال قدر الحليب طلب ابقاءه الى ان جف اغلب ما في الحليب من مواد كالماء ٠ وبقيت منه بقايا قليلة ٠ فأمر بالقدر ان يوضع وان يؤتى بالفارس فلما مثل بين يديه طلب منه ان يمتطي صهوة جواده وان يمر من فوق قدر الحليب بالسرعة التى مر فيها من فوق الطفل ٠ وفعل الفارس امتثالا لامر العارفة ٠ وما ان فعل الفارس ما امر به ٠ قام العارفة من مكانه ونظر الى القدر وقال ٠ ان التهمة تثبت على الفارس لانه حينما مر

من فوق قدر الحليب جف ما فيه وهذا يشبه (مخ) الطفل الذى جف من شدة الهلع الذي اصابه نتيجة مرور الفارس بفرسه من فوقه ٠ وطلب الى الفارس ان يعطي فرسه دية لوالد الطفل جزاء ما اقترف وهكذا فضت المشكلة القائمة بين الرجلين ٠

وبعد ٠٠ قد تكون هذه الحكايات صحيحة الا انها قطعا لا تخلو من مبالغة ٠ ومثلها كثير تتناقله شفاه الناس ٠ ان ما يمكن ان تستشفه من هذا كله هو التأكيد على الدور الذى لعبه الديوان والعارفة في التأثير على رجل الريف والبادية ٠ وقد نتهم بالغلو نتيجة ما ذكرنا الا ان من له أدنى صلة بالريف والبادية يدرك جيدا تأثير الديوان والعارفة باعتبارهما من مصادر الثقافة الشعبية تضاف الى المصادر الاخرى ٠

السعر [١٠٠] فلس

دار الحرية للطباعة
مطبعـة الجمهورية
بغـــداد ـ ١٩٧٢